مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الأول، ص1 - ص37 يناير 2009
ISSN 1726-6807, http://www.iugaza.edu.ps/ara/research/

معاني شعر الغزل بين التقليد والتجديد
في العصرين المملوكي والعثماني

أ.د. نبيل خالد أبو علي
كلية الآداب – قسم اللغة العربية
الجامعة الإسلامية – غزة - فلسطين

ملخص: يدرس هذا البحث فن الغزل في العصرين المملوكي والعثماني ، دراسة تحليلية تسعى للوقوف على ماهية هذا الفن ومكانته ، وتبيين المعاني التقليدية التي حافظ عليها الشعراء ، ومظاهر التجديد في المعاني التي تداولها الشعراء في العصور السابقة ، والإشارة إلى المستحدث غير المسبوق منها.

ومن أهداف هذا البحث أيضاً التعرف على اتجاهات فن الغزل في العصرين ؛ ومدى استجابة هذه الاتجاهات للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والحضارية التي سادت في هذين العصرين ، وكيف أثر الطابع الديني الذي طبع العصرين على معاني العفيف منه والصريح والغلماني.

كما يهدف الباحث إلى حفز الدارسين على مراجعة مواقفهم من إبداع هذين العصرين ، وتوجيه عنايتهم إلى كنوزه الأدبية المهجورة ، ودرره الشعرية المغبونة.

Tradition and Innovation in the Themes of Love Poetry in the Mamlouki and the Othmani Eras

Professor Nabil Khalid Abu Ali

Abstract: This research studies the art of love poetry during the Mamlouki and the Othmani eras. It is an analytical study that tries to explain and highlight this type of art and to show its rank among other types. The study also attempts to clarify the traditional values which the poets reserved in their poetry and innovation manifested in the poetry of previous eras Furthermore, the research also points out the modern and unprecedented themes used during these two eras.

Another aims of this research is to explore the trends of love poetry in both eras,and how far these trends were responsive to the prevailing economic, social , intellectual , and civilization factors during those eras. It also explains the influence of religion, which dominated the two eras , on the meanings of romantic and erotic love poetry.

The researcher aims to motivate students to focus their interest on the abandoned and hidden treasures of literature and poetry in these two eras.

لم يختلف الغزل في العصر المملوكي عن غيره من فنون الشعر ، فكما أن الشعراء لم يتنصلوا من تراث أسلافهم ، كذلك لم يكتفوا بالسير في ركبهم ، بل استجابوا لمتغيرات عصرهم،

ووسموا شعرهم بسمات تميزه عن شعر العصور التي سبقته ، وقد وجدناهم لا يفوِّتون فرصة يمكن أن يبتكروا فيها معنىً جديداً إلا وحاولوا اغتنامها.

وكما هو معروف فقد جاء الغزل في صدر قصيدة المدح سيراً على منهج القدماء في بناء القصيدة العربية ، كما أفردت له القصائد الطوال ، واختص به بعض الشعراء في كل عصر من عصور الأدب العربي ، ولم تختلف طرائق شعراء العصر المملوكي عن سابقيهم ، فمنهم مَن زَيَّن به صدر قصيدته كما هو الحال عند صفي الدين الحليّ وأبي الحسين الجزار والعديد من الشعراء ، ومنهم من غلب شعر الغزل على باقي فنون شعره ، كالشاب الظريف الذي اشتهر بشعر الغزل . ومما جاء في مقدمات قصائد المدح نذكر المقدمة الغزلية للقصيدة التي مدح بها أبو الحسين الجزار([1]) صديقه الشاعر جمال الدين ابن مطروح ، التي يقول فيها([2]):

هوَ ذَا الرَبْعُ ولِيْ نَفْسٌ مَشُوقَهْ … فَاحْبِسِ الركْبَ عَسَى أَقْضِي حُقُوْقَهْ
فَقَبِيْحٌ بِي فِيْ شَرْعِ الهَوَى … بَعْدَ ذَاكَ البِرّ أَنْ أَرْضَى عُقُوْقَهْ
لَسْتُ أَنْسَى فِيْه لَيْلات مَضَتْ … مَعَ مَنْ أَهْوَى وَسَاعَات أَنِيْقَهْ
وَلَئِنْ أَضْحَى مَجَازاً بُعْدُهُمْ … فَغَرَامِي فِيْه مَا زَالَ حَقِيْقَهْ
يَا صَدِيْقِي والكَرِيْمُ الحُرُّ فِيْ … مِثْلِ هَذا الوَقْتِ لاَ يَنْسَى صَدِيْقَهْ
ضَعْ يَداً مِنْكَ عَلَىْ قَلْبِي عَسَى … أَنْ تُهَدَّى بَيْنَ جَنْبَيَّ خُفُوْقَهْ
فَاضَ دَمْعِي مُذْ رَأَى رَبْعَ الهَوَى … ولَكَمْ فَاضَ وَقَدْ شَامَ بُرُوقَهْ
نَفَدَ الْلُؤْلُؤُ مِنْ أَدْمُعِه … فَغَدَا يَنْثُرُ فِي التُّربِ عَقِيْقَهْ
قِفْ مَعِي وَاسْتَوقِفِ الركْبَ فَإِنْ … لَمْ يَقِفْ فَاتْرُكْهُ يَمْضِي وَطَرِيْقَهْ
فَهْيَ أَرْضٌ قَلَّمَا يَلْحَقُهَا … آمِلٌ ، والرَكْبُ لَمْ أَعْدَمْ لحُوقَهْ
طَالَمَا اسْتَجْلَيْتُ فِيْ أَرْجَئِهَا … مَنْ يَتِيْهُ البَدْرُ إِذْ يُدْعَى شَقِيْقَهْ
يَفْضَحُ الوَرْدَ احْمِرَاراً خَدُّه … وَتَوَدُّ الخَمْرُ لَوْ تُشْبِهُ رِيْقَهْ
فَبِهِ الحُسْنُ خَلِيْقٌ لَمْ يَزَلْ … وَالمَعَالِي بِابْنِ مَطْرُوْحٍ خَلِيْقَهْ

([1]) هو جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد المعروف بالجزار – لأنه عمل مع والده في الجزارة -، ولد بالفسطاط بمصر سنة 601 هجرية ، وتلقى علومه فيها ، واجتمع هناك بالعديد من شعراء عصره ، كابن مطروح وابن أبي الأصبع والوراق والسراج والبوصيري وابن دانيال ، توفي سنة 679 هجرية . انظر ترجمته في : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق 1979م ، 364/5 .

([2]) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) ، 265/6– 266.

كذلك لم تختلف اتجاهات الشعراء عن سابقيهم ، فمنهم من اتجه وجهة الغزل العفيف ، ومنهم من اتجه إلى الغزل الصريح ، وهنالك مَنْ أغواه الغزل بالغلمان فحذا حذو بعض شعراء العصر العباسي.

1- الغزل العفيف:

ربما كان من نافلة القول الإشارة إلى أنّ الغزل العفيف هو الغزل الذي ينأى فيه الشاعر عن الوصف الحسي لجسد المرأة بمفاتنه المختلفة ، ويركن إلى الوصف المعنوي الذي يعتمد على تصوير لواعج الشوق والحنين ، ومعاني الصد والهجران والأرق والعذاب ..

فمن حديث شعراء الحب العفيف عن شوقهم ولوعتهم نورد أبياتاً للشاعر إبراهيم الإســعردي([1]) يعبر فيها عن شوقه للحبيب الذي يسكن فؤاده ، يقول فيها ([2]) :

كُنْ كَيْفَ شِـئْتَ فـإنَّني بِـكَ مُغْـرَمُ ... رَاضٍ بمـا فَعَـل الهَـوَى المُـتحكمُ
ولئن كَتَمْتُ عـن الوشـاةِ صَـبَابَتِي ... بِـكَ فـالجوانحُ بـالهوى تـتَكَلَّمُ
أَشْتَاقُ مَـنْ أهْـوَى وأَعْجَـبُ أنّنـي ... أشتاق مَن هُـو فـي الفُـؤَادِ مُخَـيمُ
يَا مَـنْ يَصـدُّ عـن المُحـبِّ تَـدَللاً ... وإذا بَكـى وَجْـداً غـدا يَتبَسـمُ
أسْكَـنْتـُكَ القـلْـبَ الذي أحْـرَقْتَـه ... فحـذارِ من نـارٍ بـه تـتَـضَـرّمُ

ويقرر الشاعر يوسف الرّندي([3]) أن الحب تمكن منه حتى استعصى على الأطباء ، وقد أضاف البُعد والفراق علة إلى علة الحب ، يقول([4]):

لَوْعَةُ الحُبِّ فِي فُؤَادي تَعَاصَتْ ... أنْ تُدَاوَى وَلَوْ أَتَى أَلْفُ راقِ
كَيْفَ تَبْرى مِنْ عِلَةٍ وَعَلَيْهَا ... زَائِدٌ عِلَةُ النَّوَى والفراقِ

([1]) هو فخر الدين أبو العباس إبراهيم الشيباني الإسعردي ثم المصري توفي سنة 693 هجرية ، وكان رئيس الموقعين بالديار المصرية ، ثم الوزير بها ، ولي الوزارة مرتين ، وكان مشكور السيرة قليل الظلم كثير العدل والإحسان . راجع : جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية 1956م ، 43/8 .

([2]) النجوم الزاهرة 43/8 .

([3]) هو يوسف الجذامي الرّندي ، ولي القضاء ببلده ، وله ديوان شعر ، وخمّس البردة ، وله كتاب أَرج الأرجاء في مسرح الخوف والرجاء . راجع : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائـة الثامنـة ، ضـبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت1997م ،296/4.

([4]) الدرر الكامنة 296/4 .

لقد تعلق الكثير من شعراء هذا العصر بما اشتهر من معاني العذريين وكما رأيناهم يشكون لوعة الفراق ، ويعانون مرض الحب ، نراهم أيضاً يصورون أعراضه التي منها السقام والنحول وكثرة البكاء ، من ذلك قول ابن الوردي([1]):

نَحَلْتُ فَمَنْ يَعُدنْي لَمْ يَجِدنْي وَلَيْسَ يَدُلُّهُ إلاّ أَنِيْنِي

وكذلك قول شهاب الدين محمود([2]) :

رَأَتْنِي وَقَدْ نَالَ مِنِّي النُّحُولُ وَفَاضَتْ دُمُوْعِي عَلَى الخَدِّ فَيْضَا
فَقَالَتْ بِعَيْنِي هَذَا السَّقَامُ فَقُلْتُ صَدَقْتِ وَبِالخَصْرِ أَيْضَا

ومن طريف صور التعبير عن استسلام المحب لمحبوبته ، ورضاه على ما يعانيه في حبه قول الشاعر محمد بن يوسف([3]):

هُمْ أَطْلَقُوا مَدْمَعِي والنَّارَ فِي كَبِدِي كَذَا نَومِي وَصَبْرِي فِي الهَوَى مَنَعُوا
دَعْ يَفْعَلوا مَا أَرَادُوا فِي عَبِيْدِهِمُ لاَ واخَذَ اللهُ أَحْبَابِي بِمَا صَنَعُوا

ويرفض الشاعر زكرياء بن يحيى الدّشناوي([4]) طلب الذين يسألونه السلوان ، لأن محاسن محبوبته قد شغفت قلبه ، مبيناً ما يعاني من هجرها ، يقول([5]):

لاَ تَسَلْنِي عن السُّلُوِ وسَلْ ما صَنَعْت بي لُطْفاً مَحَاسِنُ سَلْمَى
أوْقَعَت بين مُقْلَتي ورُقَادي وسَقَامي والجِسْمِ حرباً وسِلْمَا

لقد اشتكى شعراء الغزل الحسي – منذ العصر الجاهلي – من طول الليل لأنه يفصلهم عن محبوباتهم ، ويتعجلون انقضاء الليل وما يلاقون فيه من آلام الحب وعذاباته ، أما شعراء

([1]) ديوان ابن الوردي ، تحقيق أحمد فوزي الهيب ، طبعة دار القلم ، الكويت 1986م ، ص293 .

([2]) النجوم الزاهرة 191/9 .

([3]) هو قاضي القضاة كمال الدين محمد بن يوسف بن عبد الرحمن ، ولد في حلب سنة 874 هجرية ، تقلب في بعض المناصب مثل قضاء حلب في زمن قانصوه الغوري ، ومكة وجدة زمن العثمانيين ، وقد ترك مخالطة الناس وتصوف ، توفي سنة 956 هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن إبراهيم الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، تحقيق الفاخوري وعبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1974م ، 337/3 .

([4]) هو زكرياء بن يحيى بن هارون بن يوسف الدشناوي مولداً ، التونسي الأصل ، المنعوت بالبدر ، كان فقيهاً أديباً توفي بالقاهرة سنة 703هجرية . انظر ترجمته في : أبو الفضل كمال الدين الإدفوي : الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن وطه الحاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م ، ص 248

([5]) الطالع السعيد 249 .

الغزل العفيف في العصر المملوكي فرأينا منهم مَن يتعجل الليل ليتمتع برؤية طيف محبوبتـــه ، ومنهم الشاعر ياقوت المستعصمي[1] الذي يقول[2] :

تجدّد الشَمْسُ شــوقي كلّمــا طَلَعــتْ إلى مُحَيّاكَ يا سَــمْعي ويــا بَصَــري
وأسْـــهَرُ اللَيْــل ذا أنـــسٍ بوحشـــته إذ طيبُ ذكْرَاك فــي ظَلْمَائــه سَــمَري
وكُــلّ يــومٍ مَضَــى لــي لا أراكَ بــه فَلَسْتُ محتسباً ماضــيه مــن عُمُــري
لَيْــلي نهاري إذا ما دُرْتَ في خَلَــدي لأن ذِكْــرك نــور القَــلْــبِ والبَصَــرِ

أما الشاعر محمد السلماني[3] فقد افتتح إحدى قصائد مدحه بذكر زيارة طيف محبوبته ، وعتابه له على صدوده ، ودافع عن شوقه وعفته ، يقول[4]:

زَارَتْ ونَجْمُ الــدُجى يَشْــكُو مــن الأرَقِ والزّهــر سَــابحةٌ فــي لُجّــةِ الأُفُــقِ
والليل من رَوْعَةِ الإصْـبَاح فــي دَهَــش قَــدْ شَــابَ مَفْرَقُــهُ مــن شِــدة الفَــرَقِ
وَأَوْشَــكَتْ أنْ تُضــلّ القَصْــدَ زَائــرةٌ لــولا أتَتْنــي فــي بــاقٍ مــن الرمَــقِ
قالَتْ تَنَاسَيْتَ عَهْـدَ الحُــبّ قُلْـتُ لَهَــا لا والــذي خَلَــقَ الإنْسَــان مــن عَلَــقِ
مَا كَانَ قطّ تَنَاسِي العَهْـد مــن شِــيمي ولا السُّــلُوُ عــن الأحْبَــاب مــن خُلُقــي
ولا تَرَحَلــتُ عَــن مَغْنَــاك مــن مَلَــلٍ قَدْ يُتْــرَكُ المــاءُ يومــاً خيْفَــةَ الشَــرَقِ
أشْكُو إلــى الــنّجْمِ وَهْنــاً مــا أُكابــدُهُ حتى شَكَا النّجم من وجدي ومــن قَلقــي
يــا لائمــيّ أَفيقَــا مــنْ مُلامكُمَــا فــإنّني مــذْ ســقيتُ الحــبّ لــم أَفُــقِ
هَــلْ تــذكراني لَياليـنــا وقَــدْ نَفَحَــت ريحُ الصَّبَا فــي ريــاضٍ للصــبا عَبِــقِ
وإذْ نُعمْنَــا بــرَغْمِ الــدّهْر منْــه وقــد عَضّ الأنَاملَ مــن غــيظٍ ومــن حَنَــقِ
بكــلّ ســاحرَةِ الألبــاب آيَتُهـــا أن تَطْلُع الشمسُ في جنحٍ مــن الغَسَــقِ
تُنــازِعُ الغُصْــنَ لَــدْناً فــي تــأوّده وتَخْصِمُ الــرّيم فــي الألحــاظِ والعُنُــقِ

([1]) هو جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي ، عاش في كنف الخليفة المستعصم آخــر خلفاء بني العباس في بغداد ، واشتهر بحسن خطه وجمال نظمه ونثره ، توفي سنة 698هجريــة . انظــر ترجمته في : النجوم الزاهرة 148/8.

([2]) النجوم الزاهرة 149/8.

([3]) السلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور ص 339-340 .

([4]) هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني اليمني ، قرطبي الأصل – كان من أهل العلــم والأدب والطب ، ولد سنة 713 وتوفي سنة 776هجرية . راجع : السابق 339.

فالرّوضُ يَجْلــو عــذاراهُ وقــد لَبِستْ   عَــقَــائلُ الــوُرْقِ ديباجــاً مــن الوَرَقِ

وكما تحدث شعراء العصور السابقة عن خشيتهم من العذول والرقيب ، كــذلك كثــر حديث شعراء العصر المملوكي عنهما ، من ذلك عتاب عمر بن الوردي([1]) لعاذله بقوله([2]):

وَلِي حَالَــةٌ فِــي العَشِــقِيْنَ عَجِيْبَــةٌ   فُــؤادي ضِــرَامٌ وَالــدموعُ سِــجَامُ

فَيَــا عَــاذِلِي مَــا أَنْــتَ واللهِ عَــادِلٌ   أَأَحْفَــظُ عَهْــداً سَــابِقاً وَأُلامُ

فَلَوْ بِكَ مَا بِــي كُنْــتُ تَعْــذُرُ عَشِقــاً   لَــهُ البَيْــنُ خَصْــمٌ والغَرِيْــمُ غَــرامُ

وإذا كان ابن الوردي قد اتهم العذول بعدم العدل فإن العديد من الشعراء قــد حــازوا تعاطف العذول ، من ذلك قول صفي الدين الحلي([3]) :

يَا مَــنْ لِجَمَــالِ يُوسُــفٍ قَــدْ وَرِثَــا   العَــاذِلُ قَــدْ رَقَّ لِحَــالِي وَرَثَــى

والنَّــاسُ تَقُــولُ ، إِذْ تَرَى حُسْنَكَ ذَا: سُبْحَــانَكَ مَا خَــلَقْــتَ هَــذَا عَبَثَــا

وقد أبدى شعراء الغزل العفيف قدراً كبيراً من الحرص على سمعة محبوباتهم وعدم تعريضهن للشبهات ، وتحملوا صابرين ألم الفراق ، حتى إن سمحت المحبوبة بالرؤية ، وتحصنت بالرقباء منعاً للخلوة وحفاظاً على العفة ، من ذلك ما نراه في تبرير الشاعر جعفر بن محمد الفــاوي([4]) لتخلفه عن لقاء محبوبته([5]):

لا تَلُمْنَــا إِنْ رَقَصْــنَا طَرَبــاً   لِنَسِــيمٍ مَــرّ مِــن ذَاكَ الخِبَــا

طبّــق الأرضَ بِنَشْــرٍ عَــاطِرٍ   فِيــهِ لِلعشّــاقِ سِــرٌ ونَبَــا

([1]) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن الوردي ، ولد في المعرة سنة 689 هجرية ، وانتقل إلى حلب وفيها تلقى علومه ، نبغ في النحو والفقه والتاريخ ، وله العديد من الكتب والمنظومات العلمية إضافة إلى ديوان شعر ، توفي في حلب سنة 749 هجرية . راجع : شذرات الذهب 161/6 – 162 . والدرر الكامنة 373/3.

([2]) ديوان ابن الوردي257.

([3]) ديوان صفي الدين الحلي ، تقديم كرم البستاني ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون) ، ص 464 . هــو أبــو المحاسن ، عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، صفي الدين ، ولد في الحلّة من العراق سنة 677 هجرية ، وإليها نُسب ، كان شيعياً قحّاً ، وكان عربياً صافي العروبة ، تنقل بين بغداد ومصر ، نظم في ألوان الشــعر المستحدثة ، كما برع في الفنون الشعرية التقليدية ، توفي في بغداد سنة 752 هجرية . راجع : ديوان صفي الدين الحلي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص5.

([4]) هو جعفر بن محمد بن عبد الرحيم بن عمر الإدريسي الفاوي ، ولد بالقاهرة سنة 611 وفيها تلقى علومه ثــم انبرى لنشر العلم وإلقاء المحاضرات ، توفي سنة 696 هجرية . راجع ترجمته في: الطالع السعيد 179 – 181.

([5]) الطالع السعيد 180-181.

يـــا أُهَيْـــلَ الحـــيّ مِـــنْ كاظِمَـــةٍ　　قَـــدْ لَقِيْنَـــا مـــن هَـــوَاكُم نَصَـــبَا
قُلْتُمُـــوا : جُـــزْ لترانَـــا بـــالحِمَى　　ومَلأْتُـــــم حـــــيّكم بالرُّقَبـــــاَ
لَسْـتُ أخْشَـى المَـوْت فـي حُـبّكم　　لَـيْسَ قَتْلِـي فـي هَـوَاكُم عَجَبـا
إنّمـا أخْشَـى عَلَـى عِرْضِـكُم　　أو تَقُـولَ النّـاسُ قَـوْلاً كَـذِبا
اسْـتَحـلّـوا دَمَـهُ فـي حبّـكـم　　فاجْـعـلوا وَصْلِـي لِقَتْلِـي سَبَبـا

إن الشاعر لا يخشى لقاء المحبوبة خوفاً على نفسه من الرقباء ، بـل يخشـى علـى سمعتها من افتراء الناس وكذبهم.

وقد اقترن الحفاظ على عفة المحبوبة وسمعتها بالغيرة ، من ذلك قول عليّ بن محمود اليشكري([1]):

إنِّي أَغَـارُ مِـن النَّسِـيْمِ إذَا سَـرَى　　بِـأَرِيْجِ عَرْفِـكَ خِيْفَـةً مِـن نَاشِـقِ
وَأَوَدُّ لَـوْ سُهِّـرْتُ لا مِـنْ عِـلّـةٍ　　حَـذَراً عَلَيْـكَ مِـن الخَيَـالِ الطَّارِقِ

ومن طريف معاني الغيرة أيضاً ما نراه من غيرة صفي الدين الحليّ على محبوبته من نفسه كما يقول([2]) :

تَعَرَّضَ بِيْ ، فَقُلْـتُ : إلَيْـكَ عَنِّـي ،　　كَفَـانِي فِيْـكَ عَيْشِـي بِـالتَمَنِّي
أَخَافُ مِـن اللّحـاظِ عَلَيْـكَ ، حتـى　　أَغَـارُ عَلَيْـكَ . حِـيْنَ أَرَاكَ . مِنِّـي
أَلَـمْ تَرَنِـي . إذَا أَرْسَـلْتُ طَيْفـاً ،　　وَزَادَ عَلَيْـكَ خَـوْفِي بَعْـدَ أَمْنِـي
أُقَبِّـلُ تُـرْبَ مَـسْعَـاهُ بِـطَـرْفِي ،　　وَأَمْـحُـو إثْـرَ وَطْأَتِـه بِجِـفْنِـي

وكذلك قوله([3]) :

يَغَـارُ عَلَيْـكَ قَلْبِـي مِـنْ عِيَـانِي ،　　فَـأُخْفِي مَـا أُكَابِـدُ مِـنْ هَوَاكَـا
مَخَافَـةَ أَنْ أُشَـاوِرَ فِيْـكَ قَلْبِـي ،　　فَـيَعْلَمَ أَنَّ طَرْفِـي قَـدْ رَآكَـا

([1]) هو الشيخ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن محمود بن الحسن بن نبهان اليشكري ، عالم من علماء الفلك والتقاويم، له باع طويلة في علم الأدب وقرض الشعر . توفي سنة 680 هجرية . راجع ترجمته في: النجوم الزاهـرة 296/7 297 .

([2]) ديوان صفي الدين الحليّ 436.

([3]) السابق 438.

لقد اجتهد الشعراء في تجديد معاني شعرهم ، وانشغلوا بتصيد كل معنى طريف ، من ذلك أيضاً غبطة بعض الشعراء للسواك في فم المحبوبة ، كما في قول ابن دمرداش([1]):

أَقُولُ لمِسْــوَاكِ الحَبِيْــبِ لَــكَ الهَنَــا بِرَشْفِ فَــمٍ مَــا نَالَــهُ ثَغْــرُ عَاشِــقِ
فَقَالَ وَفِــي أَحْشَــائه حُرْقَــةُ الجَــوَى مَقَالَـــةَ صَـــبٍّ للـــدِّيَارِ مُفَـــارِقِ
تَذَكَــرْتُ أَوْطَانِــي فَقَلْبِــي كَمَا تَــرَى أُعَلِّــلُــهُ بَــيْــنَ العُذَيْـــبِ وَبَــارِقِ

ولقد دَأَبَ الشعراء على الشكَاية من صدود المحبوب وهجرانه أو قطيعته ، ومن عبث المحبوبات بهم أحياناً ، كما نرى في قول أحمد ابن عشائر السّلمي([2]):

شَـــكَوْتُ إليـــه أنّ هَجْـــرَكَ قَـــاتِلي وقُلْـــتُ لَـــه مَـــنْ ذَا يَكُـــونُ بَـــديلي
فَقَامَ وولّـــى وهـــو يُنْشِـــد ضاحـــكـــاً ألا فأعجبـــوا من ميـــتٍ وفُضُـــولي

ومع ذلك فشعراء العفة يتمتعون بالصبر والوفاء للحبيب أيّاً كان حكمه ، ذلك ما نراه في قول الشاعر عبد الغفار القوصي([3]) واصفاً ما يكابده من ألأم الفراق ، وإخلاصه للمحبوبة فـــي حلها وترحالها([4]):

بَقَاءُ نَفْسِي فـــي يَـــوْمِ النّـــوى عَجَـــبُ لأنّ مـــوتي مِـــنْ بَعْـــضِ الـــذي يَجِـــبُ
ومـــا بَقِيـــتُ وروحـــي لَسْـــتُ أَمْلِكُهـــا ولَـــيْسَ لـــي مِـــن حَيَـــاتي بَعْـــدَهم أرَبُ
ورَضاءُ قَلْبي أن يَرْضَــوا بِسَــفْك دَمــي همُ همُ إن رَضُــوا فــي الحــبّ أو غضــبوا
والقُـــربُ والبُعْـــدُ مـــا شـــاءوا فَـــدَيْتُهُم هُـــمُ الأحِبّـــةُ إنْ شَـــطّوا وإن قَرُبُـــوا
وهُـــم نهايـــةُ آمـــالي ومُرْتَجَعَـــي إلَـــيهم آل قَصْـــدي وانْتَهـــى الطَلَـــبُ
كَـــرِّر حَديثَـــهم يا سَعـْــدُ في أُذُنـــي فَلَسْـــتُ أنـــسَـــى ولكن هـــزّني الطَـــرَبُ

([1]) هو محمد بن محمد بن محمود ، أبو عبد الله ، شهاب الدين ، المعروف بابن تمرداش ، و(دمرداش ودمرتاش) ، ولد بدمشق سنة 638 وتوفي فيها سنة 723 هجرية . للاستزادة انظر ترجمته وشعره في : فوات الوفيــات 276/3 – 283 . راجع : شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصـــار ، تحقيق محمد إبراهيم حوّر ، طبعة المجمع الثقافي ، أبو ظبي 2003م ، 297/16 – 302 .

([2]) هو أحمد بن الحافظ الخطيب ناصر الدين أبي المعالي محمد بن عشائر السلمي ، باشر الخطابة بجامع حلـب الكبير إلى أن توفي بالطاعون وهو في سن الشباب سنة 790 هجرية . الدرر الكامنة 168/1 .

([3]) هو عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي ، من علماء قوص المعروفين بتقواهم وغيرتهم على الدين ، له مواقف معروفة من النصارى وكنائسهم ، وينسب أصحابه إليه كرامات ، من مصنفاته كتاب "الوحيد في التوحيــد" ، توفي بمصر سنة 708 هجرية. الطالع السعيد 323 - 327 .

([4]) الطالع السعيد 325 .

معاني شعر الغزل بين التقليد والتجديد

لقد توقف العديد من شعراء الغزل عند ساعة الفراق مليًّا ، وعبروا عن مشاعرهم تجاه رحيل المحبوبة ، ووصفوا ما يكابدونه من ألم الفراق ، من ذلك قول أبـــي جعفــر أحمــد بــن يوسف([1]):

مَحَاجِرُ دَمْعِي قَدْ مَحَــاهنَّ مَــا جَــرَى   مِن الدَّمْعِ لَمَّا قِيْــلَ قَــدْ رَحَــلَ الركْــبُ
تَنَاقَصَ حَالِــي مُذْ شَجَــانِي فِرَاقُــهُــم   فَمِــنْ أَضْلُعِــي نَــارٌ وَمِنْ أَدْمُعِي سَكْبُ

وهكذا فقد ذهب شعراء العصر المملوكي في كل مذهب بحثاً عن طريف المعاني ، كما بثوا حياة جديدة في الكثير من المعاني التقليدية كما رأينا في الشواهد التي سمح المقام بذكرها .

وقد استمر تدفق شعر الغزل العفيف **في العصر العثماني** بغزارة تُماهي اتساع رقعــة الدولة الإسلامية وكثرة عدد شعرائها ، ولا نكاد نجد شاعراً لم يخض في بحر الغزل ، ولعلني لا أتجاوز الحقيقة إن قلت إن حجم ما خلفه هذا العصر من شعر الغزل يفوق حجم أي فن من فنون الشعر الأخرى.

ولم تختلف معاني الغزل العفيف في الشعر العربي عامة ، فهي جميعاً تدور حول فراق الأحبة ، والتعبير عن أثار هذا الفراق على نفس الشاعر سواء بالوقوف على أطلال المحبوبــة وتذكر ما نقضى من أيام ، أو التعبير عن شدة الشوق لرؤية المحبوبة ووصف ما يعانيه من آلام الجوى والبعاد ، والتأسي على ما فات من ذكريات ، وتمنى رؤية الأحبة ولمّ الشمل ، وفي خلال ذلك قد يشير الشاعر إلى بعض صفات المحبوبة المعنوية ، وما تسمح به العفــة مــن صــفات جمالها، ويذكر الرقيب والواشي ، وغير ذلك من المعاني الجزئية التي تنوعــت طــرق تعبيــر الشعراء عنها، وقد اختلفت طرق تعبير الشعراء عن هذه المعاني باختلاف عصورهم ، وبيئاتهم ، وملكاتهم الشعرية ، وتجاربهم الفنية .

وقف الشعراء على الأطلال مثلما وقف سابقوهم ، ورأى بعضهم ذلك ضــرورة فــي مقدمة قصيدة المدح ، كما هو الحال عند ابن معتــوق([2]) الذي خصص معظم شعــره للمــدح ،

([1]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، ط 1 ، مؤسسة الرســالة ، بيــروت 1986م، ص302 .

([2]) هو شهاب الدين الموسوي ، الشهير بابن معتوق الحويزي ، (1025- 1087 هـ = 1616 - 1676 م) شاعر بليغ ، من أهل البصرة . فلج في أواخر حياته ، وكان له ابن اسمه معتوق جمع أكثر شعره في ديوان . راجع مقدمة الديوان . وخير الدين الزركلي : الأعلام ، طبعة القاهرة 1956م ، 178/3. ومحمد المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، 231/2– 235.

وافتتح الكثير منها بالوقوف على أطلال المحبوبة ، من ذلك قوله ([1]):

هَـذَا الحِمَـى فَـانْزِلْ عَلَـى جَرْعَائِـه ... وَاحْذَرْ ظُبَـا لَفَتَـاتِ عِـيْنِ ظِبَائِـه([2])
وَانْشُـدْ بِـه قَلْبـاً أَضَـاعَتْهُ النَّـوَى ... مِنْ أَضْلُعِي فَعَسَـاهُ فِـي وَعْسَـائِه([3])
وَسَلِ الأَرَاكَ الغَـضَّ عَـنْ رُوْحٍ شَـكَتْ ... حَـرَّ الجَـوَى فَلَجَـتْ إِلَـى أَفْيَائِـه
وَأَقْصِـدْ لُبَانَـاتِ الهَـوَى فَلَعَلَّنَـا ... نَقْضِـي لُبَانَـاتِ الفُـؤَادِ التَّائِـه
وَاضْـمُمْ إِلَيْـكَ خُـدُودَ أَغْصَـانِ النَّقَـا ... وَالْـثِمْ ثُغُـوْرَ الـدُّرِ مِـنْ حَصْـبَائِه
وَاسْفَحْ بِذَاكَ السَّـفْـحِ حَـوْلَ غَـدِيْـرِه ... دَمْعاً يُعَسْجِـدُ ذَوْبَ فِضَّةِ مَـائِـه([4])

كذلك عبَّر بعض شعراء العصر العثماني عن ضجرهم من كثرة الوقوف على الطلل والبكاء على سكانه الظاعنين عنه ، وانتقدوا أنفسهم كيف يشكون لربع قفر لا يحس بمعاناتهم، من ذلك قول أحمد العطار([5]) في التمرد على الوقوف على الطلل ، وتبرير وقوفه وبكائه جرّاء مـا يكابده من فراق المحبوبة([6]) :

أَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ بِـالنَّوَى تَتَـرَوَّعُ ... وَمِنْ حَادِثَـاتِ الـدَّهْرِ يُشْـجِيْكَ مَوْقِـعُ
وَتَشْقَى بِرَسْـمٍ قَـدْ تَرَسَّـمَهُ البِلَـى ... وتَسْقِي ثَـرَاهُ كُـلُّ نَكْبَـاءَ زَعْـزَعُ([7])
وَتَنْـدُبُ أَطْـلالاً تَعَفَـتْ رُسُـوْمُهَا ... وَتَشْـكُوْ لِرَبْـعٍ أَعْجَـمٍ لَـيْسَ يَسْـمَعُ
وَتُسْـبِلُ تَهْتَـانَ المَـدَامِعِ هَـاطِلاً ... عَلَى قَفْـرَةٍ مِـنْ دِيْمَـةٍ لَـيْسَ تُقْلِـعُ
وَتُصْـبِحُ هَيمـاً بَـيْنَ قَفْـرٍ تَجُوْسُـهُ ... وَتُمْسِـي وَلْهانـاً وَأَنْـتَ مُـرَوَّعُ
وَتَرْمِـي بِطَرْفَيْـكَ الهِضَـابَ عَشِـيَّةً ... أَفِـيْ كُـلِّ هَضْـبٍ للأَحِبَـةِ مَطْلَـعُ
وَقَائِلَـةٍ فِيْمَـا الوقُـوْفُ وَقَـدْ خَـلاَ ... مِنَ القَـوْمِ مُصْـطَافٌ يَـرُوقُ وَمَرْبَـعُ

([1]) ديوان ابن معتوق ، المطبعة الأدبية ، بيروت 1885م ، ص 62.

([2]) الجرعاء: رمل لا ينبت شيئاً ، فكأنه يتجرع البذر .

([3]) الوعساء: الأرض اليابسة.

([4]) العسجد: الذهب.

([5]) هو أحمد بن عبد الله بن بهاء الدين بن محفوظ بن رجب العطار ، الدمشقي ، المعروف بابن جَدْى . توفي سنة 1126 هجرية . راجع ترجمته في : محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القـاهرة 1967م ، 504/1 .

([6]) نفحة الريحانة 506/1– 507 .

([7]) ريح زعزع:ريح شديدة .

فَقُلْــتُ لَهَـــا أُذْرِي الــدُّمُوعَ وَهَكَــذَا　　　أَخُو الشَوْقِ مِنْ فَرْطِ الصَّــبَابَةِ يَصْـنَعُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْــلَ وَشْــكِ رَحِـيْلِهِمْ　　　بِأَنِّي إِذَا بَــانُوا عَــنِ الجِــزْعِ أَجْـزَعُ
وَلاَ أَنَّ أَنْفَاســـي يُصَـــعِّدَهَا الجَـــوَى　　　إِذَا لاحَ بَـــرْقٌ فِـــي الدُّجُنَّـــةِ يَلْمَـــعُ
فَرُحْتُ وَدَمْعُ العَــيْنِ تَجْــرِي غُرُوْبُــهُ　　　عَلَــى الخَــدِّ مِنِّــي والحَمَــائِمُ تَسْـجَعُ
تَنُوْحُ بِشَــطِّ الــوَادِيَيْنِ ولِــيْ حَشــاً　　　إِذَا مَـــا انْبَـــرَى تَرْنَامُهَـــا يَتَصَــدَّعُ
فَلاَ كَبِدِي تَهْــدَا وَلا الشَــوْقُ مُقْصِــرٌ　　　وَلا لَــوْعَتِي تَخْبُــو وَلا العَــيْنُ تَهْجَــعُ
وَقَدْ رَحَــلُوا عَنْ أَيْمُنِ الجِــزْعِ غُــدْوَةً　　　فَلَمْ يَبْقَ فِي قُــرْبِ التَّــزَاوُرِ مَطْـمَــعُ

وإذا كان الشاعر أحمد العطار يتردد على ديار المحبوبة ، ويبكي بُعدها وفراقها ، وهو يعلم أنه لا جدوى من الوقوف على طلل أصم ، ولا فائدة من النحيب والبكاء عنده ، ويبرر مـــا يفعله بشدة الشوق الذي لا تخبو ناره ، واليأس الذي لا أمل معه في رؤية المحبوبة ثانية ، فـــإن عبد الحق الشامي([1]) يقف على أطلال المحبوبة ليصبر النفس على بعدها وفراقها، وهو يعلم أن قلبه لن يفيق من سكرة الحب ، كما أنه لن يعود من غيبة شوقه([2]) :

كَــأَنَّ الرُّســومَ الدَّارِسَــاتِ تَصَــبُّرِي　　　عَشِــيَّةَ حُفَّــتْ بِــالقَطِيْنِ الرَّكَائِـــبُ
فَوَا أَسَفاً لا القَــلْبُ مِنْ سَكْــرَةِ الهَوَى　　　يُفِيْقُ وَلاَ مِــن غَيْبَــةِ الشَّــوْقِ آيِــبُ

أما منزل محبوبة الشاعر حسن البوريني([3]) ففي قلبه ، ومع ذلك نراه يشتاق إليهـــا ، ويعـــاني تباريح الهوى ، ويسأل منزلها الخالي أين رحلت ، ثم يخبره أنها تسكن قلبه مهما بعدت ، ويراوح بين اتهامها بالغدر ، والتماس العذر لها ، وتبرير صدودها بخشية الوشاة وافتضاح حبهما ، ويعلن أنه سيبقى وفياً حافظاً للوداد ، يقول([4]):

لَهَا فِــيْ رُبَــى قَلْــبِ المُحِــبِّ مَقِيْــلُ　　　وَظِــــلٌ بِأَنْحَــــاءِ الضُّــــلُوعِ ظَلِيْـــــلُ

([1]) هو عبد الحق بن محمد بن محمد الحمصي الدمشقي الحجازي ، ولد سنة 962 هجرية ، اشتغل في التدريس في مدارس دمشق، كان أديباً متمكناً من فنون كثيرة ، توفي سنة 1020 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 310/2.

([2]) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي: ريحانة الألِبَا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م ، 263/1.

([3]) هو حسن بن محمد بن حسن ، بدر الدين البوريني ، ولد بقرية صفورية سنة 963 هجرية ، وهاجر مع أبيه إلى دمشق ، ثم ارتحل معه إلي بيت المقدس ، واشتغل بالتدريس والوعظ بمدارس الشام ومساجدها ، وقد جمع ديواناً من شعره ، توفي بدمشق سنة 1024 هجرية . انظر ترجمته في : ريحانة الألبا 42/1- 53 .

([4]) ريحانة الألبا 48/1– 49.

وَإِنْ ظَمِئَتْ فَالوِرْدُ مِن مَاءِ دَمْعِهِ   يُبَلُّ بِهِ عِنْدَ الهَجِيرِ غَلِيلُ

****

مَنَازِلُ هَذَا القَلْبُ كُنَّ أَوَاهِلاَ   وَهَا هِيَ مِنْ بَعْدِ الفِرَاقِ طُلُولُ
لَكَ اللهُ يَا ابْنَ الأَكْرَمِيْنَ أَيُشْتَفِي   فُؤَادٌ لِبَيْنِ الظَّاعِنِيْنَ عَلِيْلُ
وَيَا ظَبْيُ هَلْ بَعْدَ النِّفَارِ تَأَنُّسٌ   وَيَا بَدْرُ هَلْ بَعْدَ الأُفُولِ قُفُولُ
وَيَا مَنْزِلَ الأَحْبَابِ أَيْنَ تَرَحَّلُوا   وَهُمْ فِيْ فُؤَادِي مَا حَيِيْتُ نُزُولُ
يَمِيْلُونَ عَنِّي لِلْوُشَاةِ وإِنَّنِي   إِلَيْهِم وَإِنْ طَالَ الصُّدُودُ أَمِيْلُ
أَيَجْمُلُ مِنْ أَحْبَابِ قَلْبِي غَدْرُهُم   بِغَدْرِي وَمَا غَدْرُ المُحِبِّ جَمِيْلُ
عَلَيَّ حِفْظُ الوِدَادِ وإِنْ جَنَوْا   وَلَيْسَ إِلَى نَقْضِ العُهُوْدِ سَبِيْلُ

ومن بديع معاني الوقوف على الطلل ما يقرره الشاعر أحمد بن شاهين([1]) من تصابيه وقد شاب شعر رأسه وضعف بصره ، يقول([2]) :

نَصَلَ الشَّبَابُ وَمَا نَصَلْتُ مِنَ الْهَوَى   وَبَدَا المَشِيْبُ وَفِيَّ فَضْلُ تَصَابِي
وَغَدَوْتُ أَعْتَرِضُ الدِّيَارَ مُسَلِّماً   يَوْمَاً فَلَمْ تَسْمَحْ بِرَدِّ جَوَابِي
فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّنِي فِيْ رَسْمِهَا   أَعْشَى يُحَدِّقُ فِيْ سُطُوْرِ كِتَابِ

وقد اعتاد شعراء الغزل العفيف على مناداة حادي العيس ، وطلبوا منه التعريج على ديار الأحبة ، أو التمهل لكي يتمكنوا من توديع محبوباتهم ، وبثوه أحياناً ما يعانونه من ألم ساعة الفراق ، وفي هذا المعنى قال محمد الكَنْجِيّ([3]) منادياً حادي العيس ، ومتودداً إليه لكي يبطئ السير لعلَه يدرك المطايا التي تحمل محبوبته([4]):

([1]) هو أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد ، أصل والده من جزيرة قبرس ، اشتراه أحد الأمراء وتبناه وعلّمه وجعله من أجناد دمشق ، ثم بدأ يتدرج حتى أصبح من أعيان دمشق ، تفرغ للدراسة والعلم، حتى برز في الكثير من علوم الفقه والعربية ، ناب في قضاء دمشق ، توفي سنة 1053 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 210/1– 217.

([2]) خلاصة الأثر 216/1.

([3]) هو محمد بن أحمد بن محمود بن محمد الكنجي الدمشقي ، تقلب والده في المناصب القضائية ، وأصله من مدينة كنجة الواقعة بين خوزستان وأصبهان . توفي والده سنة 1107 هجرية . أما ولده محمد – شاعرنا – فلم نقف على تاريخ وفاته . راجع ترجمته وترجمة والده في : ريحانة الألبا 49/6– 74.

([4]) محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1971م ، ص 55– 56.

حَـــادِيَ العِـــيْسِ لا عَـــدِمْتُكَ حَـــادِي بِـــي تَرَفَّـــقْ فَفِـــي الظُّعُـــوْنِ فُـــؤَادِي
وَاتْـــرُك الْعِـــيْسَ سَـــائِرِيْنَ رُوَيْـــداً وَتَهَـــــادَ بِهِـــــنَّ كُـــــلَّ التَّهَـــــادِي
عَلَّنِــــــي أُدْرِكُ المَطِـــــيَّ فَأَشْـــــفِي مَـــا بِأَحْشَـــايَ مِـــنْ أَلِـــيْمِ بِعَـــادِي
فَفُـــؤَادِي يَسِـــيْرُ خَلْـــفَ المَطَايَـــا وَدُمُـــوْعِي تَسِـــيْلُ سَـــيْلَ الـــوَادِي
يَا رَعَى اللـــهُ جِـــيْـرَةً فِي حِمَـــاهَـــا كَـــانَ لِـــي بَيْـــنَهُـــم عُـــهُـــوْدُ وِدَادِ

ثم يحدثنا الكنجي عن حاله قبل أن يراها ، وكيف أضحى صريع هواها ، فيقول([1]) :

كُنْـــتُ خِلْـــواً مِـــنَ الْغَـــرَامِ وَوَجْـــدِي فِـــي انْتِقَـــاصٍ وَصِـــحَّتِي فِـــي ازْدِيَـــادِ
نَظَـــرَتْ مُقْلَتِـــي إِلَيْـــه فَـــأَوْرَتْ مَـــا أُقَاسِـــي مِـــنْ لَوْعَـــةٍ واتِّقَـــادِ
يَـــا لَهَـــا نَظْـــرَةً أَثَـــارَتْ بِقَلْبِـــي مِـــنْ دَوَاعِـــي الغَـــرَامِ قَـــدْحَ الزِّنَـــادِ
كَيْـــفَ أَسْـــلُوُهُ أَوْ يَـــرُوْقُ لِعَيْنِـــي غَـــيْـــرُ مَـــرْآهُ وَهُـــوَ مِـــلْءُ فُـــؤَادِي

إنه الحب من النظرة الأولى كَحال العذريين في حبهم ، وهو الوفاء الذي يجعل الشاعر لا يرى سواها مهما كابد من عذاب البعد والفراق.

لقد تحدث شعراء الغزل العفيف عن معاناتهم كثيراً كما فعل شعراء الغزل العفيف في كل العصور ، واجتهد بعضهم في تصيّد لطيف المعاني ، وتوليد بديع الصور ، من ذلك قول محمد الفاسيّ([2]) في وصف تباريح الهوى وعذابه([3]):

أَتُسِيْلُ دَمْعِي ثُـــمَّ تَسْـــأَلُ مَـــا جَـــرَى عَجَبَـــاً لَعَمْـــرِكَ مَـــا رَأَيْـــتُ وَمَـــا أَرَى
هَـــذِي دِمَـــا نَـــفْـــسٍ هَـــوَاكَ أَذَابَهَـــا فَهَـــمَـــتْ عَلَـــى خَـــدِّي نَجِيْعَـــاً أَحْمَرَا

وكما كانت الشكوى من الرقيب والعذول والحاسد من خصوصيات الحب العفيف عبر العصور ، كذلك كان حال شعراء الحب العفيف في هذا العصر ، فالشاعر حسن البوريني - مثلاً - يرينا مدى الخشية من الرقيب ، وكيف تحرص حبيبته على إخفاء حبها عن أعين الناس ، وتكتفي بلغة العيون ، يقول([4]):

حَبِيْبِـــي حَبِيْـــبٌ يَكْـــتُمُ النَّـــاسَ حُبَّـــهُ لَنَـــا حِـــيْنَ تَلْقَانَـــا العيُـــوْنُ قُلُـــوبُ

([1]) ذيل نفحة الريحانة 56/6.

([2]) هو محمد بن إبراهيم ، بديع الزمان الفاسي . جمع بين رقة الحضارة ودقة البداوة ، رحل من المغرب إلى المشرق ، وجال في البلاد ، ودخل قسطنطينية ، واجتمع بعلمائها ، وانتهى به المطاف إلى مصر ، وبها توفي سنة 1006 هجرية . انظر ترجمته في: ريحانة الألبا 333/1– 350.

([3]) ريحانة الألبا 336/1.

([4]) ريحانة الألبا 45/1.

يُبَاعِـدُني فـي المُلْتَقَـى وَفُـؤادُهُ وَإنْ هُـوَ أَبْـدَى لـي البِعَـادَ قَرِيْـبُ
وَيُعْرِضُ عَنِّي والهَـوَى مِنْـه مُقْبِـلٌ إذَا خَـافَ عَيْنـاً أَوْ أَشَـارَ رَقِيْـبُ
فَتَنْطِـقُ مِنَّـا أَعْيُـنٌ حِيْـنَ نَلْتَـقِـي وَتَـخْـرَسُ مِنّـا أَلْسُـنٌ وقلُـوْبُ

وهكذا تتنوع معاني شكوى شعراء الغزل العفيف من لوعة الحب، ووجد الفراق ، وقسوة الرقيب ، وإعراض المحبوب وصدوده . وتتباين اتجاهات الشعراء في التعبير عن هذه المعاني ، فالشاعر عبد الحيّ بن أبي بكر([1]) ، يتخذ اتجاهاً أخر يختص بفلسفة الحب العفيف عامة من خلال تجربته الخاصة فيقول([2]):

خَلِّيَـانِي وَلَـوْعَتِي وَنَحِيْبِـي لَـيْسَ إلا صَـابٍ بِـدَمْعٍ صَبِيْبِ
وابْكِيَـانِي فَـإنَّ مَـنْ جَـرَحَ الَّلحْـ ـظُ قَتِيْـلٌ وَمَـا لَـهُ مِـنْ طَبِيْـبِ
أَيُّ صَـبٍّ سَمِعـتُـمَـا عَلِـقَـتْـهُ أَعْـيُـنُ الغِيْـدِ فَهْـوَ غَيْـرُ سَلِيْـبِ

ويرى أيضاً أن لذة الحب تكمن فيما يلقاه المحب من عذاب ، لذلك يتمنى لو أقرّته على حبه لها لكي يحوز تلك اللذة ، يقول([3]):

ذُو وَقَـارٍ أَهَابُـهُ أَنْ أُحَيِّـ ـيْهِ إذَا مَـا بَـدَا بِلَفْـظِ حَبِيْبِـي
فَهْـوَ لَـمْ أَدْرِ جَاهِـلٌ خُبْـرَ حَـالِي أَمْ يُرِيْنِـي تَجَـاهُلاً كَمُرِيْـبِ
لَيْتَـهُ لَـوْ أَقَـرَّ قَلْبِـي عَلَـى الحُـبِّ بِـلاَ رِيْبَـةٍ وَوَجْـهِ قَطُـوْبِ
وإذَا شَـاءَ بَـعْـدَ ذَاكَ تَـجَـنَّـى لَـذَّةُ الحُـبِّ غُصَّـةُ التَّعْـذِيْـبِ

ولا يختلف رأي ابن النحاس الحلبي كثيراً عن رأي حسن البوريني في الصدود والعتاب وبُعد دار الحبيبة([4]):

أَلَذُّ الهَوَى مَـا طَـالَ فِيْـهِ التَجَنُّـبُ وَأَحْـلاهُ مَـا فِيْـهِ الأَحِبَّـةُ تَعْتَـبُ
وَمَـا بُعْـدُ دَارٍ مِـنْ حَبِيْـبٍ مُـذَمَّماً إذَا لَـمْ يَجِـدْ فِيْـهِ مُنَـاهُ المؤَنِّـبُ
قَـضَـى الحَـظُّ إلاّ أَنْ أَكُـوْنَ مُبَعَّـداً وَأَلْقَـى الـذِّي لاقَـى المُحِـبُّ المُعَذَّبُ

([1]) هو عبد الحيّ بن أبي بكر ، البعلي الأصل ، الدمشقي المولد ، اشتهر بطرَّز الريحن لقوله في أيام صبوته: "طرز الريحان حلة الورد" ، انتهى به الأمر درويشاً يسيح في البلاد ، تنقل في بلاد الروم ، ومصر ، وحلب ، ثم استقر بدمشق . توفي سنة 1069 هجرية . راجع ترجمته : نفحة الريحانة 254/1– 292 .

([2]) نفحة الريحانة 256/1.

([3]) السابق 256/1.

([4]) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 1989، ص122.

ومثل ذلك قول الأمير منجك أيضاً([1]):

قَمَـــرٌ إِذَا فَكَّـــرْتُ فِيْـــه تَعَتَّبَـــا   وَإِذَا رَآنِـــي فِـــي المَنَـــامِ تَحَجَّبَـــا
صَـــادَفْتُه فَتَنَاوَلَـــتْ لَحَظَاتُـــهُ   عَقْلِـــي وَأَعْـــرَضَ نَـــافِراً مُتَحَجِّبَـــا
أَنَا مِــنْــهُ رَاضٍ بِالصّـُدُوْدِ لأَنَّنِـــي   أَجِدُ الهوَانَ لَـدَى الهـوَى مُسْتَعْـذَبَا

أما مرعي الكرمي([2]) فيختلف رأيه عن سابقيه ، فهو يتمنى أن يحظى بيوم يكون فيه خالي القلب من الهوى والغرام ، لكي يستريح من تباريح الحب ، وآلام الصدود والهجران ، يقول([3]) :

لَيْتَ فِـي الـدَّهْرِ لَـوْ حَظِيْـتُ بِيَـوْمٍ   فِيْـهِ أَخْلُـو مِـنَ الْهَـوَى وَالغَـرَامِ
خَالِيَ القَلْـبِ مِـنْ تَبَـارِيْحِ الهَـوَى   وَصُـــدُودٍ وَحُرْقَـــةٍ وَهَيَـــامِ
كَيْ يُـرَاحَ الفُـؤَادُ مِنْ طُـولِ شَـوْقٍ   قَدْ سَقَـاهُ الهـوَى بِكَـأْسِ الحُـمَـامِ

إلى غير ذلك من شعر الصبابة والهوى الذي استغرق معاني الحب العفيف وموضوعاته، الذي تعج به دواوين شعراء العصر العثماني وكتب الفقهاء والقضاة والأدباء ورسائلهم.

2- الغزل الحسي أو الصريح:

وهو ذلك اللون من الغزل الذي يتناول الأوصاف الحسية للمرأة ، فيتغنى بمفاتنها المختلفة ومكامن الجمال فيها . وهو ينقسم إلى نوعين : حسّي غير فاحش ، وحسِّي فاحش.

ولأننا لا نسعى للوقوف على الغزل الحسِّي الفاحش الذي تأنف منه العفة ويأباه الحياء، لذلك سينصب درسنا على الغزل الحسِّي غير الفاحش ، وسنحاول التعرف على معانيه وصوره ، وتناول مظاهر التقليد والتجديد فيها ، واستجلاء ما استحدثه شعراء هذا العصر من المعاني والصور التي لم تكن مألوفة في العصور السابقة.

([1]) ريحانة الألبا 235/1 .

([2]) هو مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي ، نسبة لطور كرم قرية بقرب نابلس ، انتقل للإقامة في مصر ، وأصبح أحد أكابر علماء الحنابلة فيها ، كان إماماً محدثاً فقيهاً واسع الإطلاع في مختلف العلوم ، صنف عشرات الكتب والرسائل العلمية ، منها : دليل الطالب في الفقه ، ودليل الطالبين لكلام النحويين ، ومقدمة الخائض في علم الفرائض ، وله ديوان شعر . توفي بمصر سنة 1033 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 358/4-361.

([3]) خلاصة الأثر 361/4 .

وكما هو معروف فقد جاء هذا الغزل في صدور قصائد المدح كما استقل بقصائد كاملة، ومن نماذج النوع الأول نورد ما جاء في صدر معارضة صفي الدين الحلّي لقصيدة المتنبي في مدح عليّ بن منصور الحاجب التي مطلعها([1]) :

بِأَبِي الشُّمُوسُ الجَانِحَاتُ غَوَارِبَا … اللابِسَاتُ مِنَ الحَرِيرِ جَلابِبَا

قال صفي الدين الحلّي([2]) :

أَسْبَلْنَ مِنْ فَوْقِ النّهودِ ذَوَائِبا ، … فَجَعَلْنَ حَبَّات القُلُوْبِ ذَوَائِبَا
وَجَلَوْنَ مِنْ صُبْحِ الوُجُوهِ أَشِعَّةً ، … غَادَرْنَ فَوْدَ اللَّيْلِ مِنْهَا شَائِبَا
بِيْضٌ دَعَاهُنَّ الغَبِيُّ كَوَاعِبا ، … وَلَوِ اسْتَبَانَ الرُّشْدَ قَالَ كَوَاكِبَا
وَرَبَائِبٌ ، فَإذَا رَأَيْتَ نِفَارَهَا … مِنْ بَسْطِ أُنْسِكَ خِلْتُهُنَّ رَبَارِبَا([3])
سَفَهاً رَأَيْنَ المَانَوِيَّةَ عِنْدَمَا … أَسْبَلْنَ مِنْ ظُلَمِ الشُّعُوْرِ غَيَاهِبَا([4])
وَسَفَرْنَ لِي فَرَأَيْنَ شَخْصاً حَاضِراً … شُدِهَتْ بَصِيْرَتُهُ ، وقَلْباً غَائِبَا([5])
أَشْرَقْنَ فِيْ حُلَلٍ كَأَنَّ وَمِيْضَها … شَفَقٌ تَدَرَّعَهُ الشُّمُوْسُ جَلابِبَا
وَغَرَبْنَ فِيْ كِلَلٍ ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: … بِأَبِي الشُّمُوسَ الجَانِحَاتِ غَوَارِبَا
وَمُعَرْبِدِ اللَّحَظَاتِ يَثْنِي عِطْفَهُ ، … فَيُخَالُ مِنْ مَرَحِ الشَّبِيْبَةِ شَارِبَا
حُلْوِ التَّعَتُّبِ وَالدَّلالِ يَرُوْعُهُ … عَتَبِي ، وَلَسْتُ أَرَاهُ إلاّ عَاتِبَا
عَاتَبْتُهُ ، فَتَضَرَّجَتْ وَجنَاتُهُ ، … وازْوَرَ أَلْحَاظاً وَقَطَّبَ حَاجِبَا
فَأَذَابَنِي الخَدُّ الكَلِيْمُ وطَرفُهُ … ذُو النُّونِ ، إذْ ذَهَبَ الغَدَاةَ مُغَاضِبَا
ذُو مَنْظَرٍ تَغْدُو القُلُوْبُ لِحُسْنِهِ … نَهْباً ، وَإِن مَنَحَ العُيُوْنَ مَوَاهِبَا
لاَ بِدَعَ إنْ وَهَبَ النَّوَاظِرَ حُظْوَةً … مِنْ نُوْرِهِ ، وَدَعَاهُ قَلْبِي نَاهِبَا

([1]) ديوان المتنبي ، تحقيق عبد المنعم خفاجي وسعيد السحار وعبد العزيز شرف ، دار مصر للطباعة 1994م، ص 55.

([2]) ديوان صفي الدين الحلّي 95– 96.

([3]) الربائب ، الواحدة ربيبة : بنت الزوجة ، امرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها . الربارب ، الواحد ربرب : القطيع من البقر الوحشي.

([4]) السفه: الجهل.المانوية: دين فارسي قديم ، يعتقد بالهين ، إله الظلمة وإله النور . الغياهب : الظلمات ، الواحد غيهب.

([5]) شدهت: دهشت.

سار الحلّي في فلك الذوق العربي الموروث ، الذي يتمثّل جمال المرأة في بياض بشرتها ، وطول شعرها الأسود القاتم ، وسعة عينيها اللتان تشبهان عيني البقرة الوحشية ، ودلها في مشيتها وتثني عطفها مَرحاً حتى يظن مَن يراها أنها ثملة من شرب الخمر.

وقد درج شعراء الغزل الحسِّي على تشبيه جمال المرأة المحبوبة بجمال بعض نثريات الطبيعة ، كإشراق الشمس ، ونور القمر ، ولين الأغصان ، وشذا الورد ، ورقة النسيم .. وبالرغم من سير شعراء العصر المملوكي في هذا الاتجاه القديم إلا أنهم حاولوا أن يضفوا عليه لمسة من لمسات التجديد والمعاصرة التي تناسب ذوقهم ، فمثلاً قول الشاعر محمد بن مكي([1]):

أَهْـوَاهُ كَالْبَـدْرِ لَكِـنْ فِـيْ تَبَدُّلِـهِ وَالْغُصْنِ فِيْ مَيْلِهِ عَـنْ لَـوْمِ لائمـهِ
سَمِـحٌ بِمُـهْـجَـتِـهِ مَا رُدَّ نَائِلُـهُ كَأَنَّـمَـا حَـاتِـمُ فِـيْ فَصِّ خَاتَمِهِ

ينطوي على محاولة استثمار صفة تبدل حال البدر ، ليخرج عن المألوف الثابت في تشبيه جمال وجه المرأة بجمال البدر ، كما يضيف إلى ما عُرف من صفة النضارة واللين المستمدة من الأغصان صفة اتقاء اللوم ، كما تميل الأغصان متقية الرياح والزوابع ، ويشحن صفة السماحة والكرم التي اشتهر بها حاتم الطائي بإيحاءات تشي بالوصال وعدم الصدود ..

ومن طريف معاني الصدود والوصال - أيضاً - قول أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل([2]):

أُعَاهِـدُ قَلْبِـي فِـي اجْتِنَـابِ هَـوَاكم وَيَغْلِبنِـي شَـوْقِي إِلَـيْكم فَأَنْكُـثُ
وأَحْلِـفُ لاَ وَاصَلتكـم مَا بَقِـيْـتُـم وأَعْلَمُ أَنَّ الوَصْـلَ خَيْـرٌ فَأَحْنَـثُ

وقد شبه صفي الدين الحلِّي المحبوبة بالشمس ، وعدد ثلاثة من أوجه الشبه ، وهي الجمال ، وعلّو المنزلة ، والنور المُبهج ، ثم طالب المحبوبة أن تستكمل الصفة الرابعة من الصفات التي تتصف الشمس بها، وهي صفة العدل كما يقول([3]):

يَا مَنْ حَكَتْ شَمْسَ النَّهَـارِ بِحُسْـنِهَا وَبُعَـادِ مَنْزِلِهَـا وبَهْجَـةِ نُوْرِهَـا
هَلاّ عَـدَلْـتِ كَعَـدْلِهَـا إِذْ صَـيَّرَتْ للنَّـاسِ غَيْبَتَـهَـا بِقَـدْرِ حُـضُوْرِهَا

([1]) هو محمد بن مكي بن أبي غنائم الدمشقي ، المتوفى سنة 742 هجرية ، كان وكيل بيت المال بطرابلس وكاتب الإنشاء بها ، كان يعرف فنوناً من العلوم ، حسن الخلق والنظم والشعر .. الدرر الكامنة 163/4 .

([2]) هو أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل ، شهاب الدين ، أبو جعفر ، ويُعرف أيضاً بابن غانم ، عالم أديب اشتغل في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق وصفد ، طاف العديد من البلاد العربية كاليمن ومكة ، توفي بدمشق سنة 737 هجرية . للاستزادة انظر: الدرر الكامنة 157/1 – 158 . والأبيات في : مسالك الأبصار 319/16 .

([3]) الديوان 420.

أما الشاب الظريف([1]) فيسأل الظباء كيف تعلمت الظباء صيد الأسود في شَرَك أهدابها، قاصداً التعبير عن جمال العيون والأهداب وصفات الرقة المعروفة عن الظباء ، بطرافة تتمثل في تجاهل قانون الطبيعة([2]) :

وَبِاللهِ قُلْ لِي أَيُّهَـا الظَـبْيُ كَيْفَ قَـدْ   تَعَلَّمْـتَ صَيْـدَ الأُسْـدِ فِي شَرَكِ الهُدْبِ

أما الشاعر شهاب الدين محمود فادَّعى أن المحبوبة تعمل معلمة في مدرسة الطبيعة ، فهي تعلم الأشجار والأغصان كيف تتمايل وتنثني ، وتعلم الورقاء كيف تغني ويتعالى هديلها ، فيقول([3]) :

تَثَنَّـى وَأَغْصَـانُ الأَرَاكِ نَوَاضِـرُ   فَنُحْتُ وَأَسْـرَابٌ مِـنَ الطَّيْـرِ عُكَّـفُ
فَعَلَّـمَ بَانَـاتَ النَّقَـا كَيْـفَ تَنْثَـنِـي   وَعَلَّمْـتُ وَرْقَـاءَ الْحِمَـى كَيْفَ تَهْتِفُ

لقد جعل العديد من شعراء الغزل المرأة مصدراً من مصادر الجمال ، وأن الطبيعة تستعير منها بعض صفات بهائها وجمالها ، فالسَّراج الورّاق([4]) مثلاً يرى محبوبته تارة مصدراً تستعير منه الطبيعة بعض صفات جماله ، ويماهي بينها وبين صفات الطبيعة البهية تارة أخرى ، من ذلك قوله([5]) :

أَعَارَتْ اللِّيْنَ عِطْـفَ البَانَـةِ النَّضِـرَهْ   هَيْفَاءُ كَالْغُصْـنِ فَـوْقَ الـدِّعْصِ مُـؤْتَزِرَهْ([6])
يَكَادُ مَاءُ الشَّبَابِ الـدَّمِنِ يَقْطُـرُ مِـنْ   أَدِيْـمِ وَجْنَتِهَـا مِـنْ رِقَّـةِ البَشْـرَهْ([7])

([1]) هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، كان والده عفيف الدين من العلماء والأدباء البارزين ، ترك العديد من الشروح والمؤلفات وديوان شعر وتوفي سنة 680 هجرية . ولد شمس الدين محمد بالقاهرة سنة 661 ثم انتقل مع والده إلى دمشق ، كان شاعراً مجيداً خفيف الظل حسن الخلق .. توفي بدمشق سنة 688 هجرية وهو غض الشباب لم يتخط السابعة والعشرين من عمره . راجع ترجمته في : ديوان الشاب الظريف ، تحقيق شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت 1985م ، ص 5–17 .

([2]) الديوان ص 63.

([3]) الدرر الكامنة 198/4– 199 .

([4]) الشاعر هو سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسن المصري المعروف بالسراج الوراق ولد سنة 615 هجرية ، توفي سنة 695 هجرية ، وكان إماماً فاضلاً وأديباً مكثراً متصرفاً في فنون البلاغة .. للاستزادة راجع : الكوكب الثابت ص312 - 316 . والنجوم الزاهرة 69/8 . وعبد العليم القباني : مع الشعراء أصحاب الحرف ، وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة 1967م ، ص 59– 80.

([5]) الكوكب الثابت 215 – 216 . وله قصيدة أخرى تلتقي مع هذه القصيدة في كثير من المعاني والصور . النجوم الزاهرة 69/8.

([6]) الدعص : كثيب الرمل ، وقد استعارها الشاعر للردف .

([7]) الدمن : المتجمع ، وتدمن : تجمع.

يَا خَجْلَةَ الوَرْدِ منْ تِلْكَ الخُــدُوْدِ وَيَــا تَفَتُّــتَ المسْــكِ مــنْ أَنْفَاســك العَطِــرَهْ
كَالْغُصْــنِ مَائسَــةٌ والظَّبْــيِ نَاعِسَــةٌ وَالشَّــمْسِ سَــافِرَةٌ وَالْبَــدْرِ مُعْتَجِــرَهْ([1])
لَوْ أَنَّهَــا أَدْرَكَــتْ عَصْــرَ الكَلِــيْمِ رَأَي أَجْفَانَهَــا حُشِــرَتْ مَــعَ جُمْلَــةِ السَّــحَرَهْ
تَغُــرُّنَــا بإِنْــكَــارٍ منْ لَوَاحِــظِــها وَلاَ تَــزَالُ عَــلَــى العُــشَّــاقِ مُنْتَــصِــرَهْ

وقد توقف شعراء هذا العصر عند طول شَعر المحبوبة ، وتغنّوا بالجفون الناعسة ، والأهــداب الطويلة ، والعيون الواسعة ، والقدّ المعتدل ، والخصر الناحل .. فمن بديع التعبير عن طول شَعر المحبوبة قول الشاب الظريف([2]):

أُحَــاذِرُ طُــوْلاً منْ ذُؤابَــةِ شَعــْرِه فَقَــدْ وَصَلَــتْ منْ قَــدِّهِ لــفُــؤادِي

ومن طريف ما قيل في الجفون الناعسة والنظرات الأخاذة قول صفي الدين الحلّي([3]):

يَا ضَـعِيْفَ الجُفُــونِ أَضْـعَفْتَ قَلْبــاً كَــانَ قَبْــلَ الهَــوَى قَوِيّــاً مَلِيّــاً
لاَ تُحَــارِبْ بِنَاظِــرَيْــكَ فُــؤادِي فَــضَــعِــيْفَــانِ يَــغْــلِــبَــانِ قَــوِيّاً

وعدد الشاب الظريف ما أعجبه من مفاتن محبوبته فذكر سحر عينيها ، وإشراق وجهها ، وبريق ثناياها ، ورقة خصرها ، وجفونها الفاترة ، وبين أثر ذلك في نفوس مَن يرونها ، فقال([4]) :

وَمَا فِيْهِ منْ حُسْنٍ سِــوَى أَنَّ طَرْفَــهُ لِكُــلِّ فُــؤادٍ فِــي البَرِيَّــةِ صَــائدُ
وَإِنَّ مُحَيَّــاهُ إِذَا قَابَــلَ الــدُّجَى أَنَارَ بِــهِ جُــنْحَ مِــنَ اللَّيْــلِ رَاكِــدُ([5])
وَإِنَّ ثَنَايَــاهُ نُجُــومٌ لِبَــدْرِه وَهُــنَّ لعقْــدِ الحُسْــنِ فِيْــهِ فَرَائِــدُ([6])
فَكَــمْ يَتَجَــافَى خَصْــرُهُ وَهــوَ نَاحِــلُ وَكَــمْ يَتَحَــالَى رِيْقُــهُ وَهــوَ بَــارِدُ([7])
وَكَمْ يَــدَّعِي صَــوْناً وَهَــذِي جُفُونُــهُ بِفَتْرَتِهَــا لِلْعَاشِــقِيْنَ تُوَاعِــدُ

([1]) اعتجرت : شدت الثوب على رأسها .
([2]) ديوان الشاب الظريف 96 .
([3]) مسالك الأبصار 327/16 .
([4]) ديوان الشا-ب الظريف 86 .
([5]) جنح الليل ، بكسر الجيم أو ضمّه : طائفة منه .
([6]) الفرائد جمع فريدة : الجوهرة النفيسة .
([7]) تجافى : لم يلزم مكانه ومال من جانب إلى جانب .

وقد توقف العديد من الشعراء عند الشامة ، وتغنوا بجمالها على خدّ المحبوبة ، من ذلك قول برهان الدين القيراطي([1]):

قَسَماً بروْضَةِ خَدِّه ونَبَاتِهَا ... وبآسِهَا المُخْضَرِّ فِيْ جَنَبَاتِهَا
وبسُورَةِ الحُسْنِ التِّي فِيْ خَدِّه ... كَتَبَ العِذَارُ بخَطِّه آيَاتِهَا
وبِقَامَةٍ كَالْغُصْنِ إلاّ أَنَّنِي ... لَمْ أجْنِ غَيْرَ الصَّدِّ مِن ثَمَرَاتِهَا
لأَعَزِّزَنَّ غُصُونَ بَانٍ زَوَّدَتْ ... أعْطَافَه بالقَطْعِ مِنْ عَذَبَاتِهَا

ومن معاني الغزل الحسي الرقيقة قول ابن نباته المصري في الخال([2]):

لله خَالٌ عَلَىْ خَدِّ الحَبِيْبِ لَهُ ... بالْعَاشِقِيْنَ كَمَا شَاءَ الهَوَى عَبَثُ
أَوْرَثْتُهُ حَبَّةَ القَلْبِ القَتِيْلِ بِهِ ... وكَانَ عَهْدِي بِأَنَّ الخَالَ لاَ يَرِثُ

وكذلك قول العز الموصلي في الشامة([3]):

لَحَظْتُ مِنْ وَجْنَتِهَا شَامَهْ ... فَابْتَسَمَتْ تَعْجَبُ مِنْ حَالِي
قَالَتْ: قِفُوا واسْتَمِعُوا مَا جَرَىْ ... قَدْ هَامَ عَمّي الشَيْخُ فِيْ خَالِي

وقد حاول بعض الشعراء أن يستخرج من المعاني المتداولة حول الرقيب وتخرصاته لدى شعراء الغزل العفيف معاني جديدة تتصل بتحقيق تلك التخرصات ، من ذلك اقتراح ابن منظور([4]) على حبيبته تحقيق ظنون الناس ، لكي لا يأثم الناس ، وأن يتحمل هو وهي الإثم بدلاً من الناس ، وهو واثق بعفو الله تعالي عنهما([5]):

النَّاسُ قَدْ أَثِمُوا فِيْنَا بِظَنِّهِم ... وَصَدَّقُوا بِالَّذِي أَدْرِي وَتَدْرِيْنَا

([1]) هو شرف الدين ، إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ابن شادي ، الشهير بالقيراطي المصري ، ولد بمصر سنة 726 وتوفي بمكة سنة 781 هجرية ، درس بمصر ولازم العلماء فيها ، بر ع في الفقه والأصول والعربية، وروى الحديث ... للاستزادة راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 160/11 – 162. والدرر الكامنة 31/1.

([2]) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف 259/1 .

([3]) هو عز الدين بن الحسين بن علي الموصلي ، الشاعر المشهور . نزيل دمشق ، وصاحب البديعية التي عارض بها بديعية صفي الدين الحلي ، توفي سنة 789 . نفحة الريحانة 446/2 .

([4]) هو محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي جمال الدين أبو الفضل ولد سنة 630 هجرية وكان مغرماً باختصار الكتب المطولة فاختصر الأغاني ، والعقد الفريد ، والذخيرة ، وغيرها ، من مصنفاته معجم "لسان العرب" ، عمل في ديوان الإنشاء طيلة عمره ، وولي قضاء طرابلس .. توفي سنة 711 هجرية . راجع ترجمته في : الدرر الكامنة 161/4– 162.

([5]) الدرر الكامنة 162/4 .

مَــاذَا يَضُــرُّكَ فِــيْ تَصْــدِيْقِ قَــوْلِهِم بِــأَنْ يُحَقِّــقَ فِيْنَــا مَــا يَظُنُّوْنَــا
حَمْلِــي وَحَــمْلُــك ذَنْبــاً وَاحِــداً ثِقَةً بِالْعَفْــوِ أَجْــمَلَ مِنْ إِثْمِ الوَرَى فِيْنَــا

عَقّب صلاح الدين الصفدي على هذه الأبيات بقوله : "هو معنى مطروق للقدماء لكــن زاد فيــه زيادة ، وقوله ثقة بالعفو من أحسن متممات البلاغة"([1]).

لقد انبهر بعض الشعراء بسمات المرأة غير العربية التي كانت جزءاً من نسيج المجتمع في العصر المملوكي ، وتغزلوا ببعض صفاتها ، الأمر الذي يعد جديداً على معاني شعر الغزل ، من ذلك مثلاً قول عبد الرحمن ابن وفا([2]) في صاحبة البشرة الصفراء([3]):

وَفِيْ ذَهَبِــيِّ اللَّــوْنِ صِــيَغٌ لِمِحْنَتِــي يُطِيْلُ امْتِحَاناً لِــي وَمَــا أَنَــا زَائِــفُ
يُذِيْــبُ فُــؤَادِي وَهْــوَ لاَ غِــشَ عِنْدَهُ فَيَــا ذَهَبِــيَّ اللَّــونَ إِنَّكَ حَــائِــفُ([4])

وكذلك تفضيل علاء الدين الجويني([5]) حاضرة الأتراك على بادية الأعراب ، وانبهاره بالتركيات وعيونهن الضيقة ، يقول([6]):

أَبَادِيَــةَ الأَعْــرَابِ عَنِّــي فَــإِنَّنِي بِحَاضِــرَةِ الأَتْــرَاكِ نِيْطَــتْ عَلاَئِقِــي
وَأَهْــلَكَ يَــا نُجْــلَ العُــيُوْنِ فَــإِنَّــنِي جُنِنْــتُ بِــهَــذَا النَّــاظِــرِ المُتَضَايِقِ

وغزل عمر بن الوردي بفتاة مغولية أسرت قبله بجمالها([7]):

لِــي مِــنْ بَنَــاتِ المُغْــلِ مَــنْ تَفْضَــحُ مِنِّــي مَــا اسْــتَتَرْ
وَكَــيْــفَ حَــالُ مُــسْــلِـمٍ أَصْــبَــحَ فِــيْ أَسْــرِ الــتَــتَرْ

([1]) السابق 162/4 .

([2]) هو عبد الرحمن ويسمي أيضاً محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن وفا ، السكندري الأصل ، كــان حســن الأخلاق رقيق الشعر.. توفي غريقاً في نهر النيل سنة 814 هجرية . للاستزادة راجع ترجمته في : الضــوء اللامع 58/4– 59 . وانظر أيضاً : فوات الوفيات 452/2 .

([3]) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل بيروت 1992م ، 59/4 . وانظر : محمد بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م ، 453/2.

([4]) الحيف : الظلم ، والحائف: الظالم .

([5]) هو علاء الدين عطاء ملك بن محمد الجويني كان صاحب الديوان ببغداد ، وله شعر حسن تــوفي ســنة 680 هجرية. راجع : عمر بن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1996م، 222/2 .

([6]) تاريخ ابن الوردي 222/2.

([7]) ديوان ابن الوردي 336.

وغزل أحمد بن علي الصنعاني في إحدى الفتيات السوداوات الحبشيات([1]):

هَوَيْتُهَا أَمْجَرِيَّةً قَدْ أَضْنَتْ فُؤادِي وَلَمْ تُوَاصِلْ
كَأَنَّهَا البَدْرُ فِي الدَّيَاجِي أَوْ هِيَّ الشَّمْسُ فِي الأَصَائِلْ

إلى غير ذلك مما قاله شعراء الغزل الحسِّي في وصف ملامح جمال المرأة غير العربية التي انخرطت في تركيبة المجتمع الإسلامي المتعدد الأعراق في العصر المملوكي.

وقد استمر تدفق هذا اللون من ألوان شعر الغزل في **العصر العثماني** وكما شكا شعراء الغزل العفيف من البعاد والصدود والهجر كذلك شكا شعراء الغزل الحسي ، فابن السَّمَّان([2]) مثلاً يتحدث عن شوقه للديار بالرغم من صدود المحبوبة ، ويبرر هذا الصدود بقوله([3]):

يُشَوِّقُنَا للدَّارِ ذِكْرُ الحَبَائِبِ ويُنْطِقُنَا بالحَمْدِ فَيْضُ المَوَاهِبِ
وَإِنَّ لَقَوْمٌ مَا نَرَى الحُبَّ سُبَّةً إذَا مَا رَأَتْهُ سُبَّةً آلُ غَالِبِ
وَلا نَرْهَبُ الأَقْدَارَ إلاّ إذَا رَمَتْ سِهَامَ المَنَايَا مِنْ قِسِيِّ الحَوَاجِبِ
وَلا نَعْذُلِ الأَحْبَابَ فِي الصَّدِّ وَالجَفَا وَلا نَرْتَجِي سِلْمَ العَدوِّ المُحَارِبِ
إِذَا كَانَ قَلْبُ المَرْءِ لَيْسَ يُطِيْعُهُ فَأَجْدَرُ بِالعِصْيَانِ قَلْبُ الأَجَانِبِ

وقد انصرف العديد من شعراء الغزل الحسي عن الوقوف على أطلال المحبوبة ، وانشغلوا بالحديث عن الوصال والصدود والتغني بمفاتن المحبوبة ، وبرروا ذلك بمثل قول عبد الله بن أحمد([4]):

مَاذَا يَفِيْدُكَ نَدْبُ الأَرْبُعِ الدُّرْسِ وشَرْحُ سَالِف عَيْشٍ بِالعَذَيْبِ نُسِي
فَشَنِّفِ السَّمعَ مِنْ ذِكْرَى مُعَتَّقَةٍ جَلْوَتُهَا كَشُمُوسٍ فِيْ دُجَى الغُلُسِ

([1]) در الحبب 142/1.

([2]) هو عبد الباقي بن أحمد بن محمد ، المعروف بابن السمان ، الدمشقي ، ولد سنة 1055 هجرية ، تلقى علومه في دمشق والقاهرة ، وسافر إلى بلاد الروم ، وأبح نديماً للسلطان العثماني محمد ، اشتغل بالتدريس والتأليف ... توفي سنة 1088 هجرية . راجع خلاصة الأثر 270/2 .

([3]) نفحة الريحانة 239/1 .

([4]) هو عبد الله بن أحمد بن إسحق بن إبراهيم بن المهدي ، أحد علماء "صنعاء" البارزين ، درّس النحو والمنطق والمعاني والبيان والحديث الشريف في جامع صنعاء .. توفي سنة 1170 هجرية . راجع : محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998م ، 261/1.

يسير الشاعر في ركب أبي نواس الذي حثَّ الشعراء على عدم الوقوف على الطلل لعدم جدواه ، ونصحهم بشرب الخمر([1]) .

ومما قيل في طلب رؤية المحبوبة سافرة ، نذكر قول أحمد الصفدي([2]) الذي يجعل فيه الطبيعة تستعير بعض صفات جمالها من محبوبته ، ويقسم أنه لن يحيد عن حبها حتى أخر حياته، يقول([3]):

أَمِــطْ اللِّثَــامَ عَــنِ الْجَبِــيْنِ المُزْهِــرِ وَاسْفُرْ عَــنِ الْوَجْــهِ الأَغَــرِّ المُقْمِــرِ
وَامْــنَح عيُــونِي نَظْــرَةً أُحْيَــى بِهَــا فَلَقَــدْ فَقَــدْتُ تَجَلُّــدِي وَتَصَــبُّرِي
عَجَباً لِقَلْبِــــي كَــمْ يــُقَــاسِــي ذِلَّــةً وَالــذُّلُّ لـَذَّ لـَهُ بـِغَـيْـرِ تـَضَـجُّرِ

****

سَرَقَتْ غُصُــوْنُ الْبَــانِ مِنْــكَ تَمَــايُلاً فَلِــذَاكَ قَــدْ قُطِعَــتْ وَحُــقَّ لِمُفْتَــرِي
يَــا فَــائِقَ الحُــوْرِ الحِسَــانِ بِوَجْهِــه وَجَمَــالِ غُرَّتِــه المَصُــوْنِ المُبْهِــرِ
قَسَماً بِوَجْهِكَ وَهْــوَ شَــمْسٌ أَشْــرَقَتْ وَبِمَا بِفِيْــكَ مِــنَ الرُّضَــابِ المُسْــكِرِ
لا حُلْتُ عَنْ مُرِّ الهَوَى مَا دُمْتَ فِــــي قَيْــدِ الحَيَــاةِ وَلَوْ بُعِثْــتُ لِمَحْشَــرِ

وقد تغنى شعراء الغزل الحسي العثمانيون بمفاتن المحبوبة ، وشبه بعضــهم أعضــاء جسدها ببعض عناصر الطبيعة ، في الرقة والنضارة واللين والألوان المبهجة .. من ذلك قــول عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي([4]) الذي ينطوي على الكثير من الصفات الحسية التي تغزل بها الشعراء بالمرأة عامة([5]):

سَــلَبُوا الغُصُــونَ مَعَاطِفــاً وَقُــدُودَا وَتَقَاسَــمُوا وَرْدَ الرِيَــاضِ خُــدُوْدَا

([1]) من ذلك قول أبي نواس :

لا تَبكِ لَيْلَى وَلا تَطْرَب إلى هِنْدِ وَاشْرَبْ عَلَى الرَاحِ من حَمْرَاءَ كَالوَرْدِ

([2]) هو أحمد بن محمد بن محمد الصفدي ، ولد بصفد ، وذهب إلى دمشق قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، اشتغل بعلم القراءات ونسخ الكتب ، وقرأ على بعض علماء دمشق ، ثم ذهب إلى الحج وأخذ عن علماء الحرمين ، سافر إلى بلاد الروم مرات عديدة ، عمل في التدريس ، ألف منظومة في العقائد ، وكتاب جمع فيه ألف حديث ، وله شعر كثير . توفي سنة 1100 هجرية . راجع خلاصة الأثر 356/1– 359 .

([3]) نفحة الريحانة 414/1– 415 .

([4]) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرحمن الموصلي ، ولد سنة 1031 هجرية ، كان أديباً فاضلاً ، وشيخاً من شيوخ الصوفية المعروفين في عصره ، توفي بدمشق سنة 1118 هجرية . راجع ترجمته في: نفحة الريحانة 430/1 – 443 .

([5]) نفحة الريحانة 432/1– 432 .

طَعَنُوا القُلُوبَ بِمَا تَلاشَى دُوْنَهُ — طَعْنُ الرِّمَاحِ وَسَدَّدُوا تَسْدِيْدَا
فَتَنُوا الوَرَى بِلَوَاحِظٍ وَتَجَاوَزُوا — بِالفَتْكِ مِنْ نَهْبِ العُقُولِ حُدُوْدَا
نَظَمُوا الثَّنَايَا فِي المَبَاسِمِ لُؤْلُؤاً — تَحْتَ الزُّمُرُّدِ وَالعَقِيْقِ عُقُوْدَا
تَخِذُوا البَنَفْسَجَ فِي الشَّقِيْقِ عَوَارِضاً — وَاليَاسَمِيْنَ مَعَاصِماً وَزُنُوْدَا
بَدَلُوا الخُصُوْرَ مِنَ الخَنَاصِرِ رِقَّةً — وَاسْتَبْدَلُوا حُقَقَ اللُّجَيْنِ نُهُوْدَا
فَهُمُ المُلُوْكُ الصَائِلُوْنَ عَلَى الوَرَى — وَهُمْ الظِّبَاءُ القَائِدُوْنَ أُسُوْدَا
نَظَرُوا إِلَى الجَوْزَاءِ دُوْنَ مَحَلِّهِمْ — فَعَدَوْا عَلَى هَامِ السِّمَاكِ قُعُوْدَا
مِنْ كُلِّ مَنْ جَعَلَ الدُّجَى فَرْعاً لَهُ — وَالبَدْرَ وَجْهاً والصَبَاحَ الجِيْدَا
رَيَّانُ مِنْ مَاءِ النَّعِيْمِ إِذَا بَدَا — خَرَّتْ لَهُ زُهْرُ النُّجُوْمِ سُجُوْدَا
كَالْمَاءِ جِسْماً غَيْرَ أَنَّ فُؤَادَه — أَضْحَى عَلَى أَهْلِ الهَوَى جُلْمُوْدَا
تَزْدَادُ مِنْ فَرْطِ الحَيَاءِ خُدُوْدُه — عِنْدَ اسْتِمَاعَ تَأَوُّهِي تَوْرِيْدَا
لَوْ أَبْصَرَ النُّصَّاحُ فَائِقَ وَجْهِهِ — عَذَلُوْا العَذُوْلَ وَحَارَبُوا التَّفْنِيْدَا
أَوْ لَوْ رَآهُ رَاهِبٌ مِنْ بِيْعَةٍ — أَلْقَى الصَلِيْبَ وَلازَمَ التَّوْحِيْدَا

رسم الشاعر صورة للمرأة الجميلة في عصره ، وعدّد الصفات الحسية العامة التي يتصف بها جسمها ؛ الوجه والثغر والشعر والنحر والقوام .. دون أن يعبر عن تجربة خاصة ، أو امرأة بعينها ، واكتفى بتمثيل النظرة العامة لجمال المرأة في عصره ، ولم يتوقف عند أية صفة معنوية باستثناء توظيفه لخجل المرأة في وصف احمرار خديها.

وقد توقف شعراء الغزل في هذا العصر عند جميع معاني الغزل الحسِّي ، واجتهدوا في تجديد القديم منها ، وتوليد الجديد الذي ينسجم وروح العصر ، ففي جمال وجه المرأة نذكر قول أبي الطيب الغَزِّيّ([1]) الذي يذكر فيه احمرار الوجه وطول الأهداب .. ([2]):

خَالَسْتُهُ نَظَراً وَكَانَ مُوَرَّداً — فَازْدَادَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَلَهَّبَا
انْظُرْ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مُتَنَصِّلٌ — بِجُفُونِهِ مِنْ طُولِ مَا قَدْ أَذْنَبَا
وَكَأَنَّ صَفْحَةَ خَدِّهِ وَعِذَارَه — تُفَّاحَةٌ رُمِيَتْ لِتَقْتُلَ عَقْرَبَا

([1]) هو أبو الطيب محمد بن محمد الغزي ، شاعر مجيد ، درس الأدب والفقه على علماء دمشق ، ورحل إلى مصر ، ثم عاد لدمشق واشتغل بالتدريس فيها ، توفي سنة 1042 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 135/1.

([2]) ريحانة الألبا 261/1 .

تغزل الشعراء بعيني المرأة ، وعدّها بعضهم سبباً للوقوع في هواها ، فمحمد المُرابط الدلائي([1]) مثلاً يعبر عن وانبهاره بجمال عيني حبيبته ، وسكره ونشوته بنظراتها ، يقول([2]):

شَـجِيْتُ إِذْ وَمَضَـتْ للصَّـبِّ عَيْنَـاك وكِدْتُ أَقْضِي هَـوًى مِـنْ حُسْـنِ مَـرْآك
يَا مَنْ ثَمِلْـتُ بِـرَاحٍ مِـنْ لَوَاحِظِهَـا للهِ مَـا فَعَلَـتْ فِيْنَـا حُمَيَّـاك
أُفْرِدْت حُسْناً كَمَا أُفْـرِدْتُ فِيْـك صَـفَا وُدٍّ وَحَاشَـاك مِـنْ شِـرْك وَإِشْـرَاك
تَكَامَلَتْ فِيْك أَوْصَـافٌ جَـلِلْـتِ بِهَا عِـنْدِي فَسُـبْحَـانَ مَـنْ بِالحُسْـنِ حَلاَّك

ومن معاني الغزل في عيني المرأة أيضاً ما قرره الحسن بن جابر([3]) من الوقوع في أسر نظرات محبوبته ، وهو يجهل أنه لا خلاص لأسير الحب([4]):

لَـوْ كَـانَ يَعْلَـمُ أَنَّهَـا الأَحْـدَاقُ يَـوْمَ النَّـوَى مَـا خَـاطَرَ المُشْـتَاقُ
جَهِلَ الهَـوَى حَتَّـى غَـدَا فِي أَسْرِهِ والحُـبُّ مَـا لأَسِـيْـرِهِ إِطْـلاقُ

ومن معاني الغزل الحسيّ التي تدور حول ولع الشعراء بالعيون الجميلة ، نـذكر أيضـاً قـول المهنار([5]) في سهام العيون التي ترميها عن قسيّ الحواجب([6]):

وَظَبْيٌ رَمَـانِي عَـنْ قِسِـيِّ حَوَاجِـبِ بِأَسْهُمِ لَحْظٍ جُرحهَا فِي الهَـوَى غُـنمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْـكِ مَنْ ضَـاعَ عُمْـرُهُ وَلَيْـسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيْـبٌ وَلا سَـهْـمُ

وقد أفرد العديد من الشعراء القصائد الطوال للتغزل بملامح جمال المـرأة ، فـذكروا العيـون والمقل، والرموش والجفون الناعسة ، والعِذار والوجنتين ، والفم والثنايا ، والقوام والخصـر ..

([1]) هو أبو عبد الله محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي ، قدم إلى القاهرة سنة 1080 بعد أن استولى على المغرب السلطان رشيد بن علي الشريف الحسني ، قال عنه المحبي أنه نادرة العصر في علم العربية ، ورأس المؤلفين في زمانه ، من مؤلفاته "نتائج التحصيل في شرح التسهيل" ،و"الدرة الدرية في محاسن الشعر وغرائب العربية" ، توفي في مدينة فاس بالمغرب سنة 1089 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 203/1– 204 .

([2]) نفحة الريحانة 20/5 .

([3]) هو الحسن بن علي بن جابر الهُبَل اليمني ، ولد بصنعاء سنة 1048 ، من أشهر شعراء اليمن قاطبة ، كان متديناً زاهداً ، اشتغل بالعلوم والآداب ، توفي سنة 1079 هجرية . راجع ترجمته في : نفحة الريحانـة 553/3 – 562.

([4]) نفحة الريحانة 554/3.

([5]) هو الأديب الشاعر إبراهيم بن يوسف المعروف بالمهنار المكي ، كان أبوه مملوكاً ، وهو أكثر المكيين شعراً ، له الكثير من المجاميع الأدبية والعلمية .. توفي بعد سنة 1040 هجرية بقليل . انظر ترجمته في : خلاصـة الأثر 53/1– 57 .

([6]) خلاصة الأثر 56/1.

وباقي ملامح جمال المرأة وشبهوها بأبهى نثريات الطبيعة ، من ذلك قول صالح بن إبراهيم بن المُزَوِّر ([1]) :

يَـا عَـيْنُ لا تَهْجَعِـي فَالسَّـعْدُ وَافَـاكِ ... وَزَارَ مَـنْ تَعْشَـقِي لَـيْلاً وَحَيَّـاكِ
مَلِيْحَـةٌ صَـاغَهَا نُـوْراً مُصَـوِّرُهَا ... فَأَفْتَنَـتْ كُـلَّ ذِي رَأْيٍ وَإِدْرَاكِ
تَعَلَّـمَ السِـحْرَ هَـارُوتٌ وَأَتْقَنَـهُ ... مِـنْ لَحْظِهَـا حِـيْنَ أَرْمَـاهُ بِأَشْـرَاكِ
كَمْ عَاشِقٍ ضَلَّ فِيْ دَاجِي الـذَّوَائِبِ قَـدْ ... أَهْـدَاهُ نُـوْرُ صَـبَاحٍ مِـنْ مُحَيَّـاكِ
حَوَيْتِ جَنَّةَ حُسْـنٍ فِـي الخُـدُودِ عَـلاَ ... مِنْ فَوْقِهَا عَرْشُ شَعْرٍ جَـلَّ عَـنْ حَـاكِ
وَكَنْـزَ ثَغْـرٍ حَصِـيْناً بِـالعَقِيْقِ حَـوَى ... جَـوَاهِراً نُظِمَـتْ مِـنْ غَيْـرِ أَسْـلاكِ
يَا طَلْعَةَ البَدْرِ يَـا شَـمْسَ النَّهَـارِ وَيَـا ... غُصْنَ الرِيَاضِ وَذَاتَ المَبْسَـمِ الزَّاكِـي
تَـاللهِ لا أَبْتَغِـي خِـلاًّ يُسَـامِرُنِي ... يَـا ظَبْيَـةً أَسَـرَتْنِي عَـيْنُ لُقْيَـاكِ([2])
لا سَامَـحَ اللـهُ عُـذَّالاً لَنَا عَذَلُـوا ... لَوْ عَايَنُـوا لَغَـدَوْا مِنْ بَعْضِ أَسْرَاكِ

وصف الشاعر محبوبته بمعظم الصفات التي وصفت بها المرأة الجميلة في عصره ، واختار من الطبيعة ما مثّل تلك الصفات ووضح مكنونها ، ولم ينس أن يُعرِّض بالعُذال ليؤكد ما ذكره من صفات جمالها ، وليبرر حبه لها ، فهم - كما يقول - لو رأوها لوقعوا في غرامها.

ومما جاء في التجلد والصبر على جفا المحبوبة وصدودها ، وذكر العُذال والشامتين ، والتودد في طلب الوصال ، وغيرها من المعاني التي اعتدناها في الغزل العفيف ، جاءت ممتزجة بمعاني الغزل الحسيّ ، نورد قول الشاعر محمد الكَنْجِيّ([3]):

أُعَلِّـلُ نَفْسِـي بِطُـوْلِ الأَمَـلْ ... وَأَعْـدِلُ عَمَّـنْ لَـدَيْكُم عَـذَلْ
وأُظْهِـرُ للشَّـامِتِيْنَ الهَنَـا ... وَأَيْسَـرُ مَـا فِـي الحَشَـا مَـا قَتَـلْ
وَأُمْسِـي طَعِـيْنَ القُـدُوْدِ الرِّشَـاقِ ... وَيُضْـحِي فُـؤَادِي جَـرِيْحَ المُقَـلْ
فَـوَاحَرَّ قَلْبَـاهُ مِـنْ شَـادِنٍ ... لَطِيْـفِ التَّثَنِّـي ظَرِيْـفِ المَيَـلْ
بَـدِيْعِ المُحَيَّـا لَـهُ وَجْنَـةٌ ... مُصَـبَّغَةٌ بِـاحْمِرَارِ الخَجَـلْ

([1]) هو صالح بن إبراهيم بن خليل الدمشقي الشهير بالمزور ، ولد بدمشق سنة 1090 تقريباً ، اشتغل بالخطابة في صالحية دمشق ، توفي سنة 1152 هجرية . راجع : ذيل نفحة الريحانة 75 – 79 .

([2]) في ذيل النفحة "غير لقياك" ، وقد أثبتت رواية سلك الدرر : "عين لقياك" لأنها أكثر ملائمة للمعنى . راجع القصيدة في: أبو الفضل محمد خليل الدمشقي المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، طبعة الآستانة 1291هـ ، 203/2 .

([3]) ذيل نفحة الريحانة 56 – 57 .

يُـــرنِّحُ رِيْـــحُ الصَّـــبَا عِطْفَـــهُ فَيُـــورِثُ قَلْبِـــي الضَّـــنَى وَالعِلَـــلْ
إلَـــى كَـــمْ تَـــدَعْ يَـــا شَـــقِيْقَ الغَـــزَالِ مُعَنَّـــاكَ مُضْـــنًى بِحَـــالٍ مَثَـــلْ
وَحَتَّـــى مَتَـــى ذَا الجَفَـــا وَالصُّـــدُوْدُ وَأَيَّـــــةُ دَاعٍ إلَـــــى ذَا العَمَـــــلْ
فَبِـــاللهِ يَـــا ظَبْـــيَ ذَاكَ الحِمَـــى بِمَـــنْ رَقَـــى لِلْعُـــلاَ وَاكْتَمَـــلْ
بِعَهْـــدٍ وَفِـــيٍّ جَـــرَى بَيْنَنَـــا عَلَـــى صِـــدْقِهِ لَـــمْ يَشِـــنْهُ زَلَـــلْ
بِبَـــاهِي المُحَيَّـــا بِغُـــنْجِ العُيُـــوْنِ بِمَيْـــلِ القَـــوَامِ إذَا مَـــا اعْتَـــدَلْ
بِرِقَّـــةِ خَصْـــرٍ بَـــرَاهُ النُّحُـــوْلُ فَأَصْـــبَحَ يَشْـــكِي ارْتِجَـــاجَ الكَفَـــلْ
بِرُحْمَـــاكَ صِلْنِـــي وَلاَ تَجْـــفُنِـــي وَجُـــدْ لِـــي عَلَى رَغْـمِ مَنْ لِيْ عَذَلْ

لم يترك الشاعر معنى من معاني الغزل الحسيّ إلاّ أَلمّ به ، لكي يرسم صورة واضحة المعالم لمحبوبته ، فذكر قوامها الرشيق ومقلتيها وأثر جمالهما في فؤاده ، وذكر مشيتها التي تشبه مشية الظبية الشابة في تثنيها وتدللها ، ووصف وجهها جملة بالجمال ، ثم فصَّل فـي وصـف وجنتها بالاحمرار خجلاً ، ثم استحلفها بآيات جمالها ودلالها أن تصله ولا تجفوه ، وحثها علـى ذلك لكي يتغلب على عذوله.

وإجمالاً فإن شعراء الغزل الحسي في العصر العثماني لم يتركوا معنى مـن المعـاني التقليدية إلا عالجوه وتركوا بصمة واضحة تشير إلى أيي التجديد التي أصابته ، هذا بالإضافة إلى ما ابتدعوه من معاني كما رأينا في النماذج السابقة .

بقي أن نشير في هذا المقام إلى اعتراف العديد من الشعراء أن هذا اللون من الغـزل يخـدش الوقار، ويتنافى مع الخلق القويم وتعاليم الدين الحنيف ، من ذلك بعض القصائد والمقطوعات التي قالها عبد الرحمن بن عماد الدين([1]) بعد أن تقدم به العمر ، ومنها قوله([2]):

سَـــأَطْمِسُ آثَـــاراً هَـــوَايَ أَثَارَهَـــا وَأَنْفَضُ منْ ذَيْـلِ التَّصَـابِي غُبَارَهَـا
لَقَدْ آنَ صَحْوِي مِـنْ سُـلافِ صَـبَابَةٍ لَقَدْ طَالَ مَا خَـامَرْتُ جَهْـلاً خُمَارَهَـا
هَجَرْتُ الهَوَى وَالزَّهْوَ حَتَّـى اشْـتِيَاقَهُ وَطِيْبَ لَيَـالِي اللَّهْـوِ حَتَّـى ادِّكَارَهَـا
وَعَفَّيْـتُ سُـبْلَ الهَـزْلِ بِالجِـدِّ مُقْلِعـاً وَعِفْـتُ مَسَـرَّاتٍ جَنَيْـتُ ثِمَارَهَـا

([1]) هو عبد الرحمن بن محمد عماد الدين بن محمد العمادي الدمشقي ، ولد سنة 978 هجرية ، ونشأ يتيماً ، اجتهد في طلب العلم حتى أصبح من ألمع علماء عصره ، اشتغل بالإفتاء ، والتأليف ، والتدريس بمدارس الشـام ، توفي سنة 1051 هجرية . راجع: ريحانة الألبا 221/1 . وخلاصة الأثر 380/2 .

([2]) ريحانة الألبا 224/1 .

أَثَــامِ كُفِيْــتُ اليَــوْمَ بِــالتَّرْكِ شَــرَّهَا لَعَلِّي غَدَاً فِي الحَشْــرِ أُكْفَــى شَــرَارَهَا
قَطَفْتُ أَزَاهِيْــرَ الصَّــبَابَةِ فِــي الصِّــبَا وَقَدْ صَــارَ عَــاراً أَنْ أَشُــمَّ عَرَارَهَــا
فَلَوْ صَــائِدَاتُ القَلْــبِ أَقْــبَلْنَ كَالْمَهَــا وَقَــبَّلْنَ رَأْســي مَــا قَبِلْــتُ مَزَارَهَــا
وَقَدْ كُنْــتُ أَوْدَعْــتُ الحِجَــا فَاسْــتَرَدَّهُ إِلَى النَّفْسِ شَــيْبٌ قَــدْ أَعَــادَ وَقَارَهَــا
وكَانَ شَبَــــابِــي شَــــبَّ نَارَ صَبَابَتِي فَمُــــذْ لاحَ نُــــوْرُ الشَّيْبِ أَخْمَدَ نَارَهَا

عبّر الشاعر في القصيدة السابقة عن موقفه الشخصي وموقف أهل عصره مــن شــعر الغــزل الحسيّ، وهما موقفان منسجمان مع طبيعة العصر وروح التدين التي كانت سائدة فيه ، ومع ثقافة الشاعر وتدينه ، فهو الفقيه المفتي الذي قال هذا اللون من الشعر تصابياً وإثباتاً للمقدرة كما أظن، كما هو حال الكثيرين من شعراء عصره([1]) .

وقد أكد أكثر من شاعر ما ذهبنا إليه في تعليل الاتجاه إلى الغزل الحسيّ ، من ذلك قول الحسن بن عليّ بن جابر([2]):

تَغَزَّلْــتُ حَتَّــى قِيْــلَ أَخُــو هَــوًى وَشَــبَّبْتُ حَتَّــى قِيْــلَ فَاقِــدُ أَوْطَــانِ
وَمَا بِيْ مِنْ عِشْــقٍ وشَــوْقٍ وَإِنَّــمَا أَتَيْــتُ مِــنَ الشِّعْــرِ البَدِيْعِ بِأَفْنَانِ

يعترف الشاعر صراحة أنه لم يتغزل ويشبب بالمرأة تصابياً ومجوناً ، بل هو الشــعر وإثبات المقدرة والتمكن من جميع فنونه.

ثالثاً: الغزل بالغلمان:

لم يكن التغزل بالغلمان من ابتداع شعراء العصر المملوكي ، فقد نسبه المؤرخون لأبي نواس ومَن جاراه من شعراء الخمر والمجون في العصر العباسي ، الذين اســتجابوا للانفتــاح الحضاري والثقافي الذي شهده مجتمعهم ، والذين عبروا عن انبهارهم بالمرأة الأجنبية التي تشبه الغلمان في ملبسها وقَصة شَعرها ، وتغزلوا بها وبمن تشبهت بها من النساء العربيــات ، كمــا أولعوا بالغلمان وتغزلوا بهم.

([1]) انظر ما قاله مصطفى البابي الحلبي في هذا المعنى ، وكذلك قول نجيب الدين بن محمد بن مَكِّيّ . نفحة الريحانة 335/2 – 336 . وكذلك ما قاله الشاعر أحمد بن يوسف بن الحسين في تنافي الشيب مع شعر الغزل الحسي . البدر الطالع 88/1 .

([2]) نفحة الريحانة 557/3 .

أما شعراء العصر المملوكي فقد تغزل العديد منهم بالغلمان مجاراة للشعراء العباسيين، وتقليداً لهم بهدف إظهار مقدرتهم الشعرية وتمكنهم من كل فنون الشعر التقليدية . يؤكد ذلك حرج بعض الشعراء من تغزلهم بالغلمان ، وتبريرهم هذا الغزل بمثل قول ابن الوردي([1]):

مَا المُرْدُ أَكْبَرَ هَمِّي وَلاَ نِهَايَةَ عِلْمِي
ولَسْتُ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ حَاشَا تُقَايَ وَحُلْمِي
وإِنَّمَا خَرْجُ دَهْرِي كَذَا فَنفَقْتُ نَظْمِي

وقد أقسم ابن الوردي على صحة ما ذهبنا إليه في قوله([2]):

وَاللهِ مَا المُرْدُ مُرَادِي وإن نَظَمْتُ فِيهِمْ كَعُقُودِ الجُمَانِ
بَلْ كُلُّ مَنْ رَامَ نِفَاقَ الذي يَقُولُه يَنْظِم خرْجَ الزَمَانِ

وكذلك ما وجدناه من شعر الغزل بالغلمان لدى بعض الفقهاء والقضاة المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، الذين لا يبرر تغزلهم بالغلمان إلا بما ذهبنا إليه ، من ذلك قول فقيه حلب الشهاب المرعشي أحمد بن أبي بكر في غلام كان يَسْبَحُ في الماء([3]):

وَسَبُوْحٍ مَاءٍ لاَ يُدَارِي جِسْمَهُ كَظُهُورِ شَمْسٍ مِن وَرَا الأَفْلاكِ
أَضْحَى يُوَارِي بِالتَمَرُّغِ نُوْرَهُ مُتَشَبِهاً بِتَمَثُّلِ الأَفلاكِ

وكذلك قول القاضي ابن خلكان متغزلاً في غلام مليح([4]):

لَمَّا بَدَا العَارِضُ فِي خَدِّهِ بَشَّرْتُ قَلْبِي بِالنَّعِيْمِ المُقِيْم
وَقُلْتُ هَذَا عَارِضٌ مُمطِرٌ فَجَاءَنَا مِنْهُ العَذَابُ الأَلِيْم

وقد اجتهد شعراء هذا العصر في إظهار مقدرتهم على هذا اللون الشعري ، وبرعوا في تجديد معانيه ، من ذلك غزل أبي حيان الأندلسي([5]) في بعض الغلمان المشوهين الذين تأنف منهم

([1]) ديوان ابن الوردي 310 .

([2]) ديوان ابن الوردي 310 .

([3]) در الحبب 177/1 .

([4]) الكوكب الثابت ص318 .

([5]) هو الشيخ الإمام العلامة أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيَّان الأندلسي ، نزيل مصر ، كان يُدّرس الناس في مصر مصنفات ابن مالك وسيبويه في النحو ، ومقدمة ابن الحاجب في الفقه ، وكان شاعراً بليغاً ، ولد سنة 654 وتوفي بالقاهرة سنة 745 هجرية ، وقد رثاه تلميذه الشيخ الأديب صلاح الدين الصفدي بقصيدة مؤثرة طويلة ... للاستزادة راجع ترجمته في : الكوكب الثابت 326 – 330 .

النفس ، والاجتهاد في جعل قبحهم جمالاً ، ففي غلام أبرص قال([1]):

وَقَالُوا الذِّي قَدْ صِرْتَ طَـوْعَ جَمَالِـهِ وَنَفْسُـكَ لاَقَـتْ فِـي هَـوَاهُ نِزَاعَهَـا
بِهِ وَضَحٌ تَأْبَـاهُ نَفْـسُ أَخِـي الحِجَـا وَأَفْظَـعُ دَاءٍ مَـا يُنَـافِي طِبَاعَهَـا
فَقُلْـتُ لَهُـم لاَ عَيْـبَ فِيْـهِ يَشِـيْنُهُ وَلاَ عِلَّـةً فِيْـهِ تَـرُومُ دِفَاعَهَـا
وَلَكِنَّمَا شَمْـسُ الضُّحَـى حِيْنَ قَابَلَتْ مَحَاسِنَـهُ أَلْقَـتْ عَلَيْـهِ شُعَـاعَهَا

لقد برع الشاعر – أبو حيان الأندلسي - في إخفاء فتور عاطفته تحت بريق معانيه المبتكرة ، الأمر الذي لا يخفي ما يريده الشاعر من هذا الغزل ، فهو يهدف إلى تطييب خاطر ذوي العاهات، إضافة إلى إثبات مقدرته على الغزل بالغلمان مجاراة لأهل ذلك الزمان ، وإلاّ فكيف نبرر انصرافه عن الغلمان الأصحاء الملاح وتغزله في غلام أعمى([2]):

مَا ضَرَّ حُسْنُ الَّـذِي أَهْـوَاهُ أَنَّ سَـنَا كَرِيْمَتَيْـهِ بِـلاَ شَـيْنٍ قَـدِ احْتَجَبَـا
قَدْ كَانَتَا زَهْرَتَـي رَوْضٍ وَقَـدْ ذَوَتَـا لَكِـنَّ حُسْـنَهُمَا الفَتَّـانَ مَـا ذَهَبَـا
كَالسَّيْفِ قَـدْ زَالَ عَنْـهُ صَـقْلُهُ فَغَـدَا أَنْكَى وَأَلَمَ فِـي قَلْـبِ الَّـذِي ضُـرِبَا
سَأَلَ البَـدْرُ هَـلْ تَبَـدَّى أَخُـوهُ قُلْـتُ يَـا بَـدْرُ لَـنْ تُطِيـقَ طُلُوعَا

لقد تغزّل شعراء هذا العصر بالصفات الحسية المعيبة ، وجعلوها ببراعتهم وحُسن تأويلهم آية من آيات الجمال ، فالشاعر ابن الخراط([3]) يذهب إلى ما ذهب إليه أبو حيان الأندلسي ، ويبرر بياضاً في شفة غلام ، فيقول([4]):

لاَ وَالَّذِي صَاغَ فَـوْقَ الثَّغْـرِ خَاتَمَـهُ مَا ذَاكَ صَـدْعُ بَيَـاضٍ فِـيْ عَقَائِقِـهِ
وَإِنَّهَـا البَـرْقُ لِلْـتَـوْدِيْعِ قَبَّلَهُ أَبْقَـى بِـهِ لَمْعَـةً مِـنْ نُورِ بَارِقِهِ

كذلك وَجَدَ الغلمان السود من يتغزل بهم ، ويبدع في جعل هذا السواد مجمعاً لصفات الحُسن والجمال ، من ذلك قول الشاعر صفي الدين الحلي([5]):

([1]) الكوكب الثابت 328 .

([2]) الكوكب الثابت 328 .

([3]) هو عبد الرحمن بن محمد بن سلمان المعروف بابن الخراط ، ولد بحماة ونشأ بحلب واشتغل بالفقه ، وتعاني الأدب ، باشر القضاء بحلب ، ثم تولى أمانة سرّ ديوان الإنشاء بطرابلس ، قطن القاهرة ، ثم تولى رئاسة ديوان الإنشاء ، وقال الشعر الرائق وطارح الأدباء ومدح الأكابر ومن مصنفاته المعاني اليتيمة والمثاني الرخيمة ، توفي سنة 840 هجرية . راجع ترجمته في : الضوء اللامع 4/ 130- 131 .

([4]) الضوء اللامع 131/4 .

([5]) الديوان ص488.

وَأَغَنَّ مِسْكِيٍّ الإِهَابِ وَوَجْهُهُ ... يُبْدِي جَمَالاً زَانَهُ الإِشْرَاقُ
رَاقَ العيُونَ بِمَنْظَرٍ ذِي بَهْجَةٍ ... وَنَوَاظِرٍ مِنْهَا الدِّمَاءُ تُرَاقُ
فَكَأَنَّهُ لَمَّا تَكَامَلَ حُسْنُهُ ... وَرَنَتْ إِلَيْهِ بِطَرْفِهَا العُشَّاقُ
مِنْ فَرْطِ إِحْدَاقِ العتيُونِ بِحُسْنِهِ ... خَلَعَتْ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الأَحْدَاقُ

لقد حرص الشعراء الذين نظموا في هذا اللون على إثرائه ، وعلى الإبداع فيه والانفلات من إسار التقليد ، متخذين – غالباً - من الغلمان غير العرب مادة لإثراء معاني غزلهم ، من ذلك مثلاً قول جوبان القواس([1]) في الغزل بعيون الترك وقدودهم([2]):

حَمَانَا التُّرْكُ وانْتَهَكُوا حِمَانَا ... وَلَيْسَ يَفِي التَوَاصُلُ بِالصُدُوْدِ
حَمَوْنَا بِالصَوَارِمِ والعَوَالِي ... وَجَارُوا بِاللَّوَاحِظِ وَالقُدُودِ

وكذلك غزل صفي الدين الحلي بغلام تركي ، الذي يحشد فيه صفات الجمال المتوارثة ويخرجها بصورة جديدة ، نورد قوله([3]):

أَوْضَحَتْ نَارُ خَدِّهِ لِلْمَجُوسِ ... حُجَّةً فِي السّجُوْدِ وَالتَّقْدِيْسِ
وَأَقَامَتْ لِلْعَاشِقِيْنَ دَلِيْلاً ... وَاضِحاً فِيْ جَوَازِ نَهْبِ النُّفُوْسِ
رَشَأٌ مِنْ جَآذِرِ التُّرْكِ ، لَكِن ... حَازَ إِرْثَ الجَمَالِ عَنْ بَلْقِيْسِ
لابِساً مِنْ بَهَائِهِ ثَوْبَ بَدْرٍ ... وَمِنَ الْوَشْيِ حُلَّةَ الطَّاوُوْسِ
حَمَلَ الكَأْسَ فَاكْتَسَتْ وَجْنَتَاهُ ... شَفَقاً مِنْ شُعَاعِهَا المَعْكُوسِ
فَشَهِدْنَا مِنْ خَدِّهِ وَسَنَاهَا ... كَيْفَ تُكْسَى البُدُورُ نُورَ الشُّمُوْسِ

ويجتهد الشاعر ابن أبي طرطور([4]) في استخراج معنى جديد من اسم الغلام "يعقوب" الذي يتغزل فيه ، ساعياً إلى ستر حقيقة مشاعر المحبة تجاه هذا الغلام ، فقال إن الناس قد غلطوا في اسمه ،

([1]) هو جوبان بن مسعود بن سعد الله ، أمين الدين الدنيسري القواس ، يسمى أيضاً رمضان ، اشتهر في دمشق بفن الزخرفة والكتابة على الخشب ، توفي في حدود سنة 680 للهجرة . انظر ترجمته في : فوات الوفيات 303/1– 309 .

([2]) مسالك الأبصار 16/ 255 .

([3]) ديوان صفي الدين الحلِّي 423 .

([4]) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد ، المعروف بابن أبي طرطور ، أحد شعراء حماة المشهورين مدح الأكابر والأعيان في الشام ، توفي سنة 762 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 8/11.

وأن اسمه يوسف وليس يعقوب ، ليستثمر صفات الحُسن التي اتصف بها يوسف الصديق ، واتخذ لنفسه اسم يعقوب ليستثمر ما أخبرنا به القرآن الكريم عن حبٍّ يعقوب لابنه يوسف ، فقال([1]):

يَــا مَلِيْحــاً حَــازَ وَجْهــاً حَسَــناً ... أَوْرَثَ الصَّــبَّ البُكَــا وَالحَزَنَــا([2])
غَلِطُوا فِي اسْمِــكَ إِذْ نَــادَوْا بِــهِ ... يُوسُــفٌ أَنْــتَ وَيَــعْـقُـوْبُ أَنَــا

ومثله في استثمار معاني القرآن ، وتوظيف ألفاظه لتجديد معاني الغزل بالغلمان ، وإخراجها من دائرة إيحاءات الشذوذ التي اقترنت بها قول الشاب الظريف([3]):

لَوْ لَمْ تَكُنْ ابْنَــةُ العُنْقُــود فِــيْ فَمِــهِ ... مَا كَانَ فِيْ خَــدِّهِ القَــانِي أَبُــو لَهَــبِ
تَبَّتْ يَــدَا عَــاذِلِــي فِيــْهِ فَــوَجْنَتُهُ ... حَمَّــالَةُ الــوَرْدِ لاَ حَمَّــالَــةَ الحَــطَبِ

ولم يتوقف شعراء **العصر العثماني** عن مجاراة أسلافهم في العصور السابقة ، وإظهار مقدرتهم على جميع فنون القول ، ومنها الغزل بالغلمان ، وقد اجتهدوا في توليد المعاني ، وتصيُّد كل طريف منها ، وشواهد ذلك عديدة نذكر منها قول أحمد بن عبد الرحمن الوارثي([4]) في غلام اسمه بدر([5]):

سَــمُّوْهُ بَــدْراً وَذَاكَ لَمَّــا ... أَنْ فَــاقَ فِــيْ حُسْــنِهِ وَتَمَّــا
وَأَجْــمَــعَ الــنَّــاسُ مُــذْ رَأَوهُ ... بِأَنَّــهُ اسْــمٌ عَــلَــى مُسَمّــَى

ومثله قول جمال الدين الحسيني([6]) في غلام تركي اسمه إبراهيم([7]):

ظَبْيٌ مِنَ التُّــركِ قَــاسٍ رُحْــتُ أَسْــأَلَهُ ... وَصْلاً فَقَــالَ مُجِيْبــاً مُــذْ بِــهِ بَخِــلاَ
صُنْ مَاْءَ وَجْهِكَ عَنْ ذُلِّ السُّــؤَالِ تَجِــد ... طَرِيْــقَ عِــزٍّ بِبَحْــرِ المَجْــدِ مُتَّصِــلاَ

([1]) النجوم الزاهرة 8/11 .

([2]) الحَزَن: الهَمّ .

([3]) ديوان الشاب الظريف 62 .

([4]) هو الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الوارثي المصري الصدِّيقي ، المعروف بالوارثي الكبير المفسّر المحدّث ، يعود نسبه إلى أبي بكر الصديق ، له اليد الطولى في غالب العلوم ، وله كتب ورسائل عديدة ، توفي سنة 1045 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 234/1 – 236 .

([5]) خلاصة الأثر 236/1 .

([6]) هو جمال الدين بن نور الدين علي بن أبي الحسن الحسيني ، تعلم في دمشق ثم هاجر إلى مكة وجاور بها زمناً ، ثم انتقل إلى اليمن والهند وحيدر أباد ، وفي حيدر أباد حظي بمكانة رفيعة عند حاكمها ، توفي في حيدر أباد سنة 1098 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 494/1 – 495 .

([7]) نفحة الريحانة 317/2.

وكذلك قول إبراهيم البترونيّ([1]) في مليح اسمه موسى([2]):

كُــــلُّ فِرْعَــــوْنَ لَــــهُ مُوْسَـــــى وَذَا فِي الهَــوَى مُوْسَــاكَ يُوْلِيْــكَ النَّكَــدْ

فَكَمَا أَكْمَــــدْتَ مَــــنْ يَهْوَاكَ بِالصَّــ ـــدِّ مُتْ صَــــدًّا وَذُق طَعْــــمَ الكَــمَدْ

لقد سعى هؤلاء الشعراء الذين لم يشتهروا بالمجون والخلاعة إلى اصطياد كل معنى طريف يثبت قدرتهم على الغزل بالغلمان ، وفي هذا المقام نذكر ما غزل الشاعر الضرير ماجد بن ماجد([3]) في قارئ قرآن صوته جميل([4]):

وَتَــــالٍ لآيِ الـــذِّكْرِ قَــدْ وَقَفَــتْ بِنَــا تلاوَتُــــهُ بَــــيْنَ الضَّــــلالَةِ وَالرُّشْــــدِ

بِلَفْــــظٍ يَسُــــوْقُ الزَّاهِدِيْنَ إِلَى الخَنَا وَمَعْنًــــى يَشُوْقُ العَاشِقِيْنَ إِلَى الزُهْدِ

وقد لا تختلف معاني الغزل بالغلمان عن معاني الغزل الحسيّ كثيراً ، وأحياناً تلتبس بها إن لم تكن هنالك قرينة على أن المتغزل به غلام ، لأن الشعراء ذكروا الخال والشامة ، كما ذكروا الوجنة وتغنوا بجمالها ، والقوام ورشاقته .. وغير ذلك من المعاني الحسية التي رأيناها في الغزل بالمرأة ، فمن الشعر الذي اشتمل على قرينة نذكر قول أبي بكر الجوهري([5]) في غلام اسمه داود، ورقيب اسمه عمرو([6]):

أَفْــدِّي غَــزَالاً لَــهُ خَــالٌ بِوَجْنَتِــهِ مَعْ عَارِضٍ شِبْهِ وَاوِ العَطْـفِ مَمْـدُوْدِ

كَأَنَّما الخَـــالُ فَــوْقَ الخَــدِّ يَحْـرُسُهُ حَــــذَارَ سَــرْقَــةِ عَمْـــرٍو وَاوَ دَاوُدِ

ومن معاني الغزل بالغلمان التي تلتبس بالغزل بالمرأة قول عبد الحي بن علي بن محمود([7]):

([1]) إبراهيم بن أبي اليمن بن عبد الرحمن البتروني ، أديب فاضل عمل في التدريس في مدينة حلب ، تولي العديد من المناصب في سلك القضاء ، توفي سنة 1053 هجرية . خلاصة الأثر 10/1 – 11 .

([2]) خلاصة الأثر 10/1 .

([3]) هو أبو علي ماجد بن هاشم بن علي بن المرتضي بن علي بن ماجد الحسيني البحراني ، ولد بالبحرين ، وفقد بصره وهو صغير ، ولي قضاء البحرين ، ثم تقلد الإمامة والخطابة في شيزار ، وفيها توفي سنة 1028 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 307/3 – 308 .

([4]) خلاصة الأثر 308/3 .

([5]) هو أبو بكر أحمد بن علاء الدين بن محمد بن عمر ، المعروف بالجوهري الشامي ، ولد في دمشق سنة 968 هجرية ، اشتغل بالتجارة وتنقل بين مصر والشام ، كان شاعراً مطبوعاً ، جمع من شعره ديواناً ، توفي بعد سنة 1030 هجرية بقليل . خلاصة الأثر 68/1 – 70 .

([6]) خلاصة الأثر 69/1 . وريحانة الألبا 167/1 .

([7]) هو عبد الحي بن علي بن محمد بن محمود الطالوي ، الشهير بالخال ، شاعر مطبوع قال في معظم فنون الشعر ، له شعر في المجون والهجاء كثير . توفي بدمشق سنة 1117 هجرية . ذيل نفحة الريحانة 138.

رُويْـدَكَ يَـا رَشِـيْقَ القَـدِّ يَـا مَـنْ بِمَعْسُـولِ القَـوَامِ لَنَـا يُهَـدِّدْ
فَقَدُّكَ حَـطَّ غُصْـنَ البـَانِ حَتَّـى بِأَعْـلاهُ الجَـمَـالُ غَـدَا يُـعَـدِّدْ

وكذلك ذكر العذول واستعارة بعض عناصر الطبيعة وسمات الخمر لوصف الغلمان والتغزل بهم ، كما هول الحال في الغزل الحسي بالمرأة ، كما في قوله([1]):

قَالَ العَوَاذِلُ مَـنْ تَهْـوَاهُ صِـفْهُ لَنَـا فَقُلْتُ غُصْنٌ وَمِنْ مَاءِ النَّعِـيْمِ سُـقِي
وَالخَمْـرُ رِيْقَـهُ مَنْ أَهْوَى وَعَارِضُه بَنَفْسَـجٌ وَالقَـوَامُ اللَّدْنُ مِنْهُ رُقِي

إلى غير ذلك من الشواهد التي نعفُ عن ذكرها .

وإجْمَالاً فقد مَجّ سواد الناس هذا اللون من الغزل ، وتصدى العديد من الشعراء للمتغزلين بالغلمان، من ذلك قول عبد الرحمن ابن كثير المكيّ([2]):

كِبَـارُ زَمَانِنَـا أَضْـحَوْا صِـغَاراً وَقَدْ غَضِـبَ الزَمَـانُ عَلَـى الكِبَـارِ
كَـأَنَّ زَمَـانَنَـا مِـنْ قَـوْمِ لُـوْطٍ لَـهُ وَلَـعٌ بِتَـقْـدِيـمِ الصِّغَـارِ

لعلّ الشاعر يشير إلى الشعراء الذين تغزلوا في الغلمان مجاراة لغيرهم ، وإثباتاً لتمكنهم من الشعر وفنونه عامة ، وهو يصفهم بصفة الكبار لأن منهم الفقهاء والقضاة والأدباء المشهود لهم بالوقار والتدين.

كذلك انتقاد أخيه علي بن كثير للذين يتبعون شهواتهم ، فيتغزلون بالغلمان ، ويتملقون السلطان .. وهم يعلمون أن ذلك حرام ، وذلك في قوله([3]):

صَـحِبْتُ الأَنَـامَ فَـأَلْفَيْتُهُمْ وَكُـلٌّ يَمِيْـلُ إِلَـى شَـهْوَتِهْ
وَكُـلٌّ يُرِيْـدُ رِضَـى نَفْسِـهِ وَيَجْلِـبُ نَـاراً إِلَـى بُرْمَتِـهْ([4])
فَلِلَّـهِ دَرُّ فَتًـى عَـارِفٍ يُـدَارِي الزَمَـانَ عَلَـى فِطْنَتِـهْ
يُجَـازِي الصَّـدِيْقَ بِإِحْسَـانِه وَيُبْقِـي العَـدوَّ إِلَـى قُدْرَتِـهْ
وَيَلْـبَسُ لِلـدَّهْرِ أَثْوَابَـهُ وَيَـرْقُصُ لِلْقِـرْدِ فِـيْ دَوْلَتِـهْ

([1]) ذيل النفحة 157 .
([2]) ريحانة الألبا 431/1 .
([3]) ريحانة الألبا 432/1 .
([4]) البرمة : قِدرٌ من حجارة .

إلى غير ذلك من الشواهد التي يستنكر أصحابها الغزل بالغلمان ، والتي تمثل الـذوق السائد في العصر العثماني.

الخاتمة:

لقد اجتهد الباحث في التنقيب عن شعر الغزل في مواطنه بالرغم من قلـة المصـادر المتاحة وصعوبة المهمة ، فوقف على الغزل في مقدمات القصائد التي لم تتخذ الغزل موضوعاً لها ، ثم حاول تصنيف قصائد الغزل حسب اتجاهاتها الموضوعية ، فكانت ثلاثة أنواع ؛ عفيف يتماهى أحياناً مع العذري ، وحسي لا تختلط معانيه بالفاحش المستكره ، وغلماني تنتفـي عـن بعضه شبهة الشذوذ ، وغلماني مرفوض أشرنا إلى بعض مواقف شعراء العصرين منه.

وفي ثنايا الحديث عن ألوان شعر الغزل في العصرين توقفنا علـى معـاني الغـزل التقليدية، وبيَّنا كيف وسمها الشعراء بميسم عصريهم ، وكذلك توقفنا عند مظاهر التجديـد فـي المعاني التي تداولها الشعراء في العصور السابقة ، وبيَّنا اجتهاد الشعراء في تلوين تلك المعاني بألوان ثقافتهم الخاصة ، كما أشرنا إلى براعة بعض الشعراء في اختراع المعاني وترك البصمات التي تشي بثقافتهم ومكانتهم الأدبية.

ومن نوافل هذا البحث اشتمال حواشيه على تراجم موجزة لمعظم مَن ورد ذكرهم فـي هذا البحث من الشعراء ، والإشارة إلى مكامن شعرهم ، وذلك بغية حفز الدارسين على خوض غمار العصرين ، وتشجيعهم على مراجعة مواقفهم السلبية من العصرين ، وإنارة دروب المعرفة أمامهم ، وتمهيد سبل البحث.

المصادر والمراجع

1- ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ضبطه وصححه الشيخ عبـد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت1997م .

2- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) .

3- أبو الفضل كمال الدين الإدفوي : الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمـد حسن وطه الحاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م .

4- أبو الفضل محمد خليل الدمشقي المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، طبعة الآستانة 1291هـ.

5- أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م.
6- جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية 1956م.
7- خير الدين الزركلي : الأعلام ، طبعة القاهرة 1956م .
8- ديوان ابن الوردي ، تحقيق أحمد فوزي الهيب ، طبعة دار القلم ، الكويت 1986م.
9- ديوان ابن معتوق ، المطبعة الأدبية ، بيروت 1885م.
10- ديوان الشاب الظريف ، تحقيق شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة العربية، بيروت 1985م.
11- ديوان المتنبي ، تحقيق عبد المنعم خفاجي وسعيد السحار وعبد العزيز شرف ، دار مصر للطباعة 1994م.
12- ديوان صفي الدين الحلي ، تقديم كرم البستاني ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ).
13- السلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور .
14- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل بيروت 1992م.
15- شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد إبراهيم حوّر ، طبعة المجمع الثقافي ، أبو ظبي 2003م.
16- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الأَلِبَّا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م.
17- عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق 1979م.
18- عبد العليم القباني: مع الشعراء أصحاب الحرف ، وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة 1967م.
19- عمر بن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1996م.
20- عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 1989.

21- محمد المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .

22- محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1971م.

23- محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتـــب العربيـــة ، القاهرة 1967م.

24- محمد بن إبراهيم الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، تحقيق الفاخوري وعبارة ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1974م.

25- محمد بن أحمد الكتبي: فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م.

26- محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998م.